

ب. راوین
ترجمہ: یوسف شلب الشام



0095835



Bibliotheca Alexandrina

ب. راوين
ترجمة: يوسف شلب الشام

الحضارات الهندية في أمريكا

(الأنثى. المايا. الإنكا)

الحضارات الهندية في أمريكا

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٨٩

دار المنارة

للمدراسات والترجمة والنشر

الجمهورية العربية السورية

اللاذقية ص.ب ٨٢٢ هاتف ٢٦١٢٢

١٩٨٩ / ٨ / ١٠٠٠

طبع في مطابع دار العلم

التنفيذ الضوئي :

توطئة

يتناول هذا الكتاب حضارة الهنود في أمريكا الوسطى والجنوبية والمكسيك مما عرف في أذهان الناس بحضارات المايا والأزتك والإنكا مع كل ما مثلته هذه الحضارات من عظمة وتوهج في فنون البناء والنحت والنقش والصياغة والخزف والأدب والكتابة الهيروغليفية والحساب والفلك والأساطير. ثم ينتقل في القسم الثاني إلى حديث طويل عن تأثير هذه الثقافات بهنود أمريكا الشمالية الذين وجدهم الأوروبيون عند وصولهم في حالة من الصيد والالتقاط وبعض الزراعة ووجدوا في بعض مناطقهم وبخاصة على طرقي وادي الميسيسيبي الأدنى تلالاً صناعية MOUNDS تخفي تحتها آثار حضارة حاول المؤلف أن يربطها إلى مؤثرات قدمت إلى هذه المناطق من ثقافة المايا والأزتك كما حاول أن يربط كثيراً من العبادات والمقدسات والأفكار والعبادات والأساطير إلى تلك الحضارة لأنها تدل على ذكرى بعيدة ما زالت تسمع أصدائها في عقول هؤلاء الهنود الحمر وتصرفاتهم.

ولما كان هذا القسم الثاني من الكتاب الذي يحاول فيه المؤلف أن يظهر مؤشرات حضارات المايا والأزتك في هنود أمريكا الشمالية بهم الأمريكيتين أكثر مما بهم غيرهم من الشعوب وبخاصة نحن المتكلمين بالعربية فقد اقتصرنا على ترجمة القسم الأول من الكتاب الذي يتعلق بالحضارات الأم : حضارات المايا والأزتك والإنكا لأهميتها القصوى في تاريخ الإنسانية وما تطرحه من تساؤلات حول أصولها ومدى صلاتها بحضارات العالم القديم .

على أن المؤلف استعجل في كتابة الأحداث فجعل الفصل الأول منه توطئة لما جاء في القسم الثاني من الكتاب واصفاً بعض المظاهر الحضارية والآثار العمرانية التي كشفت في أمريكا الشمالية وأشار إلى أن هذه الحضارة المتقدمة المندثرة لا بد أن تكون قد قامت بتأثير من حضارات الجنوب ، وقراءة هذا الفصل تغنياً على كل حال عما أهملت ترجمته من الكتاب .

● المترجم

مقدمة

حاولت في هذا الكتاب أن أصف بطريقة مبسطة حياة الهنود الأمريكيين وتاريخهم في ملامحها البارزة، فالموضوع اذن هو موضوع شرح وإيضاح لا مجرد عرض وسرد للأحداث. ووجهة نظري فيما قمت به هي التالية: إن تاريخ أمريكا الوطنية (أي أمريكا قبل أن يصل إليها الأوروبيون) لا يمكن تفسيره إلا بانتشار الحضارات الكبرى التي تقدمت وتطورت في المكسيك وأمريكا الوسطى وعلى طول الساحل المطل على المحيط الهادي من أمريكا الجنوبية ما بين بيرو والإكوادور. ولا أعتقد أن صواب هذا التأكيد يمكن أن يكون حتى الآن موضع نزاع جدلي، سيما وأن هذه النظرية لم تعد أصيلة طالما سبقني إليها كثيرون من علماء الأجناس.

ولقد سعت لأن أقدم الوقائع دون تشويه، وأن أصف قبائل خصصت كلاً منها، وبطريقة نموذجية، بما تحمله من سمات من الثقافات الأمريكية.

وقد ادعى بعض النقاد عندما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أنني لم أكن عادلاً بالنسبة للثقافات الأقل تطوراً لأنني عزوت كل ما أذهنته من عمل عظيم إلى النفوذ المباشر أو غير المباشر لحضارة المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية. إلا أن أعمال السنوات الأخيرة أكدت وجهة نظري بأكثر مما كنت أنتظر. وحتى بعد أن أصبح من البديهي أن الحضارة الهندية في الجنوب الغربي من أمريكا هي أقدم بكثير مما ذهب الظن إليه في بادئ الأمر فإننا نلاحظ في كل يوم أن تطورها الأولى إنما تم بتأثيرات جليلة من المكسيك.

أما الأبحاث الأركيولوجية في وادي مكسيكو والمناطق المجاورة، تلك الأبحاث التي جرت في السنوات السبع الأخيرة، فقد قلبت كل ما كان لدينا من مفاهيم. فنحن نستطيع الآن أن نعود بتاريخ هذه الأراضي حتى عام ١٠٠٠ ق.م. وقد تم إثبات أن حضارة الشعوب المسماة بالتولتيك TOLTEQUES ليست إلا واحدة من عدة طبقات أثرية متراكمة بل هي الطبقة الأقرب إلينا من بينها.

ولكن هذه الاكتشافات الحديثة، على الرغم من أنها لم تؤد إلا إلى زيادة التعقيد في اللوحة التاريخية، فإنها لم تعدل من نظريتنا الأساسية. قد يمكن أن يكون ما عالجته من المؤثرات القديمة للمايا في الولايات المتحدة الأمريكية يدل على أنها أتت من جنوبي المكسيك، ولكن الأمر لا يتعدى ذلك ولا يتعد عنه.

أما في الموضوع الذي طال النقاش فيه عن نموذج الثقافة التي كان يملكها هنود الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تنشر بينهم العناصر الثقافية الأعلى التي وصلت إليهم من المكسيك فإننا نستطيع أن نؤكد الآن على أنه بالرغم من أن هذه الثقافات لم تكن تستند على قاعدة زراعية فإن بعضها كان حقاً أكثر تعقيداً مما كان يظن حتى اليوم.

فمن المحتمل جداً أنه في زمن قديم كانت تمتد حضارة موخده بسيا تعرف صاعقة الفحار ووصلت إلى مستوى عال في السياسية والدبر . كانت تمتد على كل أمريكا الشمالية من الساحل الشمالي الغربي لكندا عبر السهول حتى البحيرات الكبرى ، ثم على طول المنطقة الواقعة إلى الشرق من الميسيسي مجتازة البحر الكاريبي وواصلة إلى الشمال الشرقي من أمريكا الجنوبية . ولا بد أن مثل هذه الحضارة ستكون قادرة على أن تؤثر بطريقة شخصية في كل نفوذ واندفاع يأتيها من حضارات الجنوب الكبرى ، وهذا ما يمكن أن يفسر لنا مثلاً قابلية ثقافات الماوند « MOUNDS » على التغير والتحول كما يفسر قدرتها على التطور الذاتي .

ومسألة المصطلحات هنا مسألة شائكة كما هي في كل الكتب التي تحاول إيصال الموضوعات العلمية للشعب . ولقد تمكنت من حلها دون التعرض لتناقضات كثيرة في معالجاتي للموضوع ، وإذا فائتني بعض المصطلحات الاختصاصية فإنني أرجو من قرائي غفران ذلك وأن يعودوا إلى هذه المصطلحات في التعريفات التي قدمتها في أماكن مختلفة من هذا الكتاب .

● بول رادان

الفصل الأول

نظرة أولية على العالم الجديد

كان الناس يظنون في العصور الوسطى أن نهاية العالم ستأتي بعد ألف عام تماماً من مولد السيد المسيح . وفي نهاية هذا العام الألف ، وحيث كانت أنظار الناس تنتظر هذه النهاية المحتومة ، كُشف لهم عالم جديد . فقد ألقت العواصف بملاح نروجي كان يتجه من النروج إلى غروثلندا على أرض لم يكن قد سمع عنها قبل ذلك قط . وهناك وجد حقولاً من «الكرمة» ومن «القمح» الوحشي .

كان اسم هذا المغامر ليف إريكسون الذي اكتشف أمريكا وجنساً بشرياً جديداً هو الهنود . إلا أنه لم يكتب لليف إريكسون هذا . كما لم يكتب لموسى من قبله . أن يدخل حقاً إلى الأرض الموعودة . وبعد ثلاث سنوات ذهب ثلاثة من أقرانه هم ثورفين كارلسيفني ، وثورفالد . وهواخ غير شقيق للأول . ، وصديق لهما يسمى ثورهال ، ذهبوا ليكتشفوا «الفردوس المزروع بالكروم» الذي وصل إليه ليف من قبل . وتقول لنا الأسطورة (Saga) النرويجية القديمة إن ثورهال كان «عريض

المتكئين، أسمر اللون ذا قامة عملاقة. كان رجلاً قليل الكلام وإن كان قادراً على الشتيمة عندما يتكلم. وكان مسيحياً سيئاً ولكنه واسع الاطلاع في موضوع المناطق غير المسكونة من الأرض».

إلا أن ثورمال ما لبث أن مات عند سواحل إيرلندا، بينما تابع رفيقه مسيرتهما. وبعد إبحار طويل أقبلوا نحو الجنوب حتى وصلوا إلى نهر نازل من الداخل بعد أن اجتاز بحيرة كبيرة قبل أن يصب في البحر. وهنا - كما تقول لنا الساغا (أي الاسطورة) - رأيا في صباح أحد الأيام، في دغشة منه، عدداً كبيراً من المراكب المصنوعة من الجلود كانت ترتفع منها هراوات تصدر عنها ضجة قتال مرعبة وتتجه في جهة الشمس نفسها. . وفي هذه المراكب كان يجلس رجال قووم مظهر بشع وشعور منفرة. وكانت عيوشهم كبيرة ووجناتهم عريضة. وقد توقفوا طويلاً وهم يراقبون الرجلين اللذين ظهرا أمامهم ثم ما لبثوا أن ابتعدوا وهم يجذفون نحو الجنوب».

تلك كانت أول مقابلة بين الأوروبيين وبين الوطنيين من القارة الأمريكية. وليس بإمكاننا حالياً أن نحدد على وجه الدقة من كان هؤلاء السكرايلنغ كما كان يسميهم النرويجيون، فقد كانت البلاد التي قضى الشتاء فيها مواطننا ليف تمتد ما بين لابرادور وانكلترا الجديدة، فهي مسكونة إذن بالأسكيمو والهنود. إلا أن أسطورة أحدث من الأولى وأضعف ثقة منها تقول إن النرويجيين تقدموا حتى خليج تشيزابيك ومضيق فلوريدا

فإذا كان هذان المغامران قد توقفوا لدراسة هذه الشعوب الغريبة التي لقيها فإن لذكى منهما كان لا بد له من أن يقابجا بالخلافات العميقة في اللغات والثقافات التي تفصل بين هذه الشعوب، هذا إذا لم تلغى نظره خلافات جوهرية أخرى أيضاً.

وهكذا فإن الأقرب إلى الصواب أن النرويجيين كانوا يعرفون من بين هذه الشعوب الأسكيمو وحدهم . فغروثلندا كانت قد اكتشفت في مطلع القرن العاشر الميلادي . ولا بد أن الأسكيمو الذين كانوا يسكنون فيها قد أعلموا الغزاة البيض بأن لهم أقارب في لابرادور . وما لم يكن النرويجيون يحسبون حسابه هو أن هؤلاء الأسكيمو كانوا يسكنون كل القسم الشمالي من القارة الأمريكية ما بين لابرادور حتى جزر اليوسين ، وأن هؤلاء الأسكيمو - باستثناء هجرات حديثة نسبية إلى ساحل المحيط الهادي وإلى المنطقة التي تمتد إلى الشمال من البحيرات الكبرى - كانوا يتقدمون نحو الجنوب حتى خليج سان لوران .

واليوم يعيش في كل هذه المنطقة شعب وطني من الأسكيمولا تزال ثقافتهم بدائية جداً . أما أن تكون في ماضيات الأيام أكثر رقياً مما هي عليه اليوم فذلك ما يحق لنا أن نشك فيه . ومع ذلك فإن هذه الثقافة مهما كانت بسيطة ، ومهما بدت كذلك في الماضي ، فإنها تبقى النموذج الكلاسيكي التقليدي الخاص المكثف بين كل الثقافات البدائية بوجه عام . ونحن لا نجد في أي مكان من العالم وبخاصة في أمريكا شعباً وطنياً ربط كل أوجه وجوده ربطاً كاملاً ببضغ مبادئ متينة الأركان مثل هذا الشعب . فهم لا يملكون أي عنصر أساسي من عناصر الثقافات الوطنية الأكثر تقدماً كالزراعة وصناعة الفخار والنسيج والعبادات المعقدة والتنظيم الاجتماعي المتطور . ومع ذلك فإنهم - بالقليل الذي يملكون - أمكنهم أن يتوصلوا إلى وحدة لم يتمكن من العثور عليها في بقية أنحاء القارة الأمريكية .

وإلى الجنوب من الأسكيموما بين ساحل الأطلسي حتى مقاطعة مانيتوبا في الغرب قابل كارلسيفني شعباً يسمى الفونكان يتكلم لغة مختلفة عن لغة الأسكيمو ولم تكن ثقافته أقل خشونة من ثقافتهم

ولكن مع شيء من التغيير . كان شعباً يمتلك معرفة بدائية عن الزراعة وصناعة الفخار . وفي عام ١٠٠٠ للميلاد كان كثيرون من هؤلاء الألفونكان قد دخلوا في علاقات مع بعض القبائل الأكثر تحضراً في الجنوب . وهكذا نستطيع أن نؤكد بكل ثقة أن كثيراً من هؤلاء الهنود كانوا قد وصلوا إلى أحوال معيشية هي التي لاحظناها بعد ستائة من الأعوام أوائل المستعمرين الذين أتوا ليستقروا في ماساتشوستس وكونيكتيكوت . ويبدولنا بمثل هذه الثقة أن الألفونكان كانوا يتشرون على طول ساحل الأطلسي ما بين إنكلترا الجديدة وفرجينيا .

أما في فيرجينيا فتغير اللوحة تماماً ، فهنا نحن أمام شعب جديد يتمتع بحضارة أكثر تقدماً . ومن بين الكثير من الأعراض التي تنبئنا عن ذلك نلاحظ مستوى من المعيشة أكثر غنى وأكثر تعقيداً وتنوعاً ، فهنا توجد قرى حقيقية محاطة بسيارات من القصب للدفاع عنها ، كما توجد بساتين معتنى بها تثبت فيها الذرة والفاصولياء والقرع والتبغ . فلو أن النرويجيين سألوا الوطنيين لعلموا أن سكان هذه القرى كانوا يقيمون الكثير من الاحتفالات المعقدة وأن نظام الحكومة الذي يطبقونه كان شديداً الغرابة والتعقيد . والواقع أن هؤلاء الناس كانوا - كما نعلم اليوم - أعضاء من عائلة السيو SIOUX الكبيرة الانتشار . وأنهم لم يكونوا - إذا توخينا الدقة في التعبير - وطنيين محليين وإنما كانوا يمثلون فرعاً من مجموعة بشرية مسكنها الأصلي يقع على بعد كبير إلى الغرب والجنوب ، فهناك على ضفاف نهر الأوهايو وحتى مصب الميسيسيبي كان هؤلاء السيرو قد احتكوا بجنس مدهش تضرب حضارته في أبعاد أكبر من الماضي ، إذ أن هذا الشعب العجيب كان قد لعب قبل ألف عام دوراً من الدرجة الأولى باعتباره أول من تلقى الحضارات القديمة الأولى من المكسيك ومن المكسيك الوسطى . وقد أعطى السيرو كثيراً

من عناصر هذه الحضارة إلى سكان شواطئ الأوهايو والميسيسيبي القدماء، وإن كان البعض يدعي أنهم أحفاد هؤلاء السكان. والخلاصة أن هؤلاء السيوس الشرقيين كانوا شعباً مشيراً للاهتمام، والنفوذ الذي مارسوه على جيرانهم من الشعوب الأثر خشونة وبدائية لا بد أن نكن له الكثير من الاحترام. وفي حوالي العام ١٠٠٠ للميلاد كان بعض قبائل الألفونكان قد اندفع نحو الجنوب حتى فيرجينيا وساهم مساهمة كبيرة في الحضارة التي أتى بها السيوس من الغرب. ومن المحتمل أن درجة التطور المرتفعة التي لاحظها الكابتن جون سميث في جيمس تاون عام ١٦٠٧ لدى البوكا هونتاس إنما تعود أيضاً إلى العام ١٠٠٠ للميلاد.

فأي نوع من الحياة كان يمارسه هؤلاء السيوس؟ فلتوقف قليلاً لنقدم بعض صفاتها لأنها من عدة وجوه تعطي السمات المميزة لأكثر من نصف سكان الولايات المتحدة من الوطنيين، وإن كانت لا تمثل أوج الحضارة الهندية إلى الشمال من ريوغراندي. ففي مناطق أخرى كما هو الحال في الجنوب الغربي ونيومكسيكو وأريزونا ازدهرت طقوس وتقاليد أكثر غنى وتعقيداً، وبلغ فن البناء والنسيج وصناعة الفخار درجة من الكمال لا يمكن أن يقاس بها شيء مما أنتجه السيوس، ولكن خصوصية هذه الشعوب الجنوبية الغربية نفسها تمنعها من أن تكون على مستوى السيوس من حيث نموذجية التمثيل.

هنالك عنصران يميزان حضارة السيوس ويعطيانهما طابعها، أولهما الأهمية المعطاة للزراعة، وثانيهما التنظيم الخاص بالمجتمع. وكل ما يحتويه هذا التنظيم من ثبات إنما مرده الزراعة، مرده الذرة. ومع ذلك فإن زراعة الذرة لم تسيطر على حياتهم سيطرة كاملة كما هي الحالة لدى أقاربهم البعيدين جداً الذين يسكنون إلى الجنوب منهم تماماً أولدى

الشعوب التي تعيش في الجنوب الغربي . يضاف إلى ذلك أن عنصراً جديداً كان قد نفذ إلى حياتهم هو البيزون (الثور الوحشي الأمريكي) ، ذلك لأن صيده أدخل فيها تعديلاً عميقاً فحولهم شيئاً فشيئاً من أناس كان أجدادهم مزارعين حقيقيين إلى شعب لا يعدو أن يكون نصف حضري .

وقد تشكلت حول البيزون مع مرور الأيام تداعيات لا حصر لها من الصور والأفكار . فتركز خيال هؤلاء الهنود كما تركزت محبتهم بشكل يتزايد يوماً بعد يوم على هذا الحيوان الرائع واندجعت به الحياة القبلية كلها ، فلم يصبح العنصر الأساسي في حياتهم فحسب وإنما جرى استخدامه لغايات أخرى ، فكل ما كان له علاقة بهذا الحيوان أصبح ذا منفعة بهذا الشكل أو ذاك حتى أصبح مركزاً للرقصات والاحتفالات وغدا الموضوع الرئيسي للأغاني والأساطير .

إلا أنه كان لصيد البيزون نتائج أخرى ، من بينها الصدام مع الأعداء . ومن أجل تجنب أخطار مثل هذا الصدام أصبح الصيد مشروعاً جماعياً حقاً ، إذ أصبح كل الأعضاء القادرين من القبيلة يشكلون عصابة وجب عليها أن تتبع نموذجاً جديداً من التكتل لكي يكون تعاونها أكثر جدوى . وهكذا بدأ كثير من القواعد القاسية التي كانت تطبق في القرى وكأنها لا فائلة منها أثناء مسيرة الصيد فوق الأراضي المكشوفة . فتشكلت مع الزمن مجموعة جديدة من القوانين رأت القبيلة أنه لا بد لها من مراعاتها أثناء الصيد .

ومع ذلك فغالباً ما كان مفيداً أن تتحالف القبيلة مع القبائل الصديقة أو تقيم السلم بينها وبين القبائل المعادية . وهكذا يصبح من الخطأ أن نشير فقط إلى مثالب هذه المغامرات الجماعية الكبرى ، فبدلاً من فروات الشعر المسلوخة عن جماجمها وبدلاً من الأسرى أصبح الهنود

يعودون من رحلاتهم دائماً مع أشياء وأفكار وأغان واحتفالات كانت
مجهولة لديهم حتى ذلك الوقت. وبذلك أصبح صيد البيزون المركز
الذي تشع منه مؤثرات جديدة سواء كانت بناء أو هدامة.

ويهجروهم لسيدهم القديم «الذرة» تحول الهنود إلى سيد جديد
هو البيزون. وكان الأول يمثل الإرث القديم المتبلور الثابت المتأصل في
قلوب الجميع، بينما كان الثاني كشافاً جديداً أغتته ذكريات الأخطار
الدائمة والانتصارات المنجزة وتتغير مبادئه من عام إلى عام بشكل
مستمر. وهكذا أصبحوا الآن يلزمون القرية نصف العام فقط، بينما
يقضون بقية الوقت في الصيد. وفترة هذه الحياة الجديدة في البراري
كانت غامرة. وبقي البيزون منتصباً وحده، أما الذرة فهي حقاً لم تختف
من حياتهم اختفاء تاماً ولكن أهميتها تناقصت بسرعة ثم ما لبثت أن
نحيت جانباً عن المجرى الحقيقي للحياة.

ولكن إذا كانت سيادة الذرة قد انتهت فإن التنظيم الاجتماعي
والرقصات والأغاني التي لا حصر لها، أي كل المظاهر التي كان قد
خلقها هذا النبات بقيت كلها سالمة دون تغيير كبير.

وتنقسم القبيلة عند السيول إلى عدد من الزمر تكون كل منها أوسع
من العائلة وتحمل اسم حيوان. فثمة مثلاً زمرة الدب وزمرة النسرو زمرة
الأيل إلى غير ذلك. ولا يجوز لأفراد الزمرة الواحدة أن يتزوجوا فيها
بينهم ويعتبر كل فرد جزءاً من زمرة أبيه. أما في قبائل أخرى وبخاصة في
الجنوب فإن الفرد ينتمي إلى زمرة أمه، ويبدو أن هذه كانت حالة السيو
أيضاً في وقت ما مما مضى من تاريخهم. ويعتقد أتباع هذه الزمر أو
العائلات الكبيرة أنهم أحفاد الحيوان الذي يحملون اسمه ويظهرون
تجاهه كل آيات التبجيل والاحترام. كما يعتبرون أنفسهم متحدين
برباط من القرابة لا تنحل عراه.

على أن كل ما ذكرناه ليس إلا مظهراً واحداً من تعقيد نظامهم الاجتماعي . فهذه الزمر أو العائلات الكبيرة تتكثل في وحدتين أكثر اتساعاً تتمايزان على أشكال مختلفة بحسب القبائل . فأحياناً تُسميان السلم والحرب ، أو الصيف والشتاء ، أو العالي والسواطيء أو الأرض والسماء . وهذا التجمع المؤلف من جزئين كان هاماً بمقدار ما كانت هامةً قسمةً ترى السيوم من الناحية المكانية إلى قسمين كان كل من الجزئين يحتل واحداً من هذين القسمين المميزين . والعلاقات التي كانت توحد بين هاتين المجموعتين كانت مثيرة للفضول ، فأفراد المجموعة الواحدة منها لا يستطيعون التزاوج فيما بينهم ، كما أنه عندما يموت واحد منهم يجب أن يدفن على يد فرد ينتمي إلى المجموعة المقابلة . وأخيراً فإنهم عندما يلعبون لعبة الكرة والعصا التي تحتل مكانة الشرف لدى هؤلاء الهنود فإن من المهم أن يسعى كل من الطرفين لأن يحصل على الانتصار .

وكما هو شأن النظام الاجتماعي كذلك كانت الرقصات والطقوس والاجتماعات معقدة أيضاً . فهناك بطبيعة الحال رقصات الذرة ورقصات البيزون ، ولكنهم كانوا يحتفلون عدا عن ذلك برقصات يقيمونها على شرف مختلف الحيوانات العائلية وغيرها من الأرواح والكائنات الإلهية .

أما الرقصات التي تقام على شرف الأرواح التي تتراءى في الحلم لأحد الأفراد فإنها ترندي أهمية خاصة . ففي كل أمريكا الوطنية ، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة ، يسلم الهنود أنفسهم للصوم والصلاة ليستراى لهم في الحلم روح من الأرواح . أما الذين يتراءى لهم في حلمهم نفس الروح فيتجمعون ويشكلون فيما بينهم جمعيات سرية يُبعد عنها الآخرون . وفي هذه الجمعيات يوجد دائماً أربعة أماكن

مقدسة يحمل كل منها اسم أحد الكائنات الإلهية التي تحكم الجهات الأصلية الأربع . وكانت هذه الكائنات الإلهية موضع عبادة في كل أنحاء أمريكا من يوكاتان حتى الشمال من كندا حيث يكون لها احتراماً خاصاً في كل مكان . ومع ذلك فإن الأهم من هذه الاحتفالات كلها كان ذلك الذي يتم في الشتاء على شرف مجمع الآلهة كلهم ، فهنا يبلغ الشعور الديني أوجهه حتى ليكاد يوصل إلى الهيجان . وأخيراً فإن كل مجموعة من الطقوس والرقصات تركز حول بعض الأشياء المقدسة التي كان من أشهرها العمود المقدس رمز الصحة والحياة بالنسبة للجميع .

ذلك ما كان يجب أن تكون عليه حياة السيومن الهنود - في ملامحها العامة - في نحو من العام ١٠٠٠ للميلاد . فإلى أي مدى تتضح في هذه الملامح المراحل الرئيسية التي قطعتها الحضارة الوطنية الأمريكية ؟ . هذا ما سنراه عندما نكمل وصفنا للرحلة التي يعزوها بعض المؤلفين لخلفاء ليف إريكسون .

إلى الجنوب من فيرجينيا بعيداً إلى الداخل كان يعيش شعب آخر كان يقع دائماً تحت ضغط السيو ، وهذا الشعب هم الشيروكي الذين يتكلمون لغة مختلفة عن كل من رأيناها حتى الآن على الرغم من قرابتها البعيدة للغة قبائل التكساس من الكادو KADDO . وهؤلاء الأخيرون معروفون منا عن طريق ممثليهم المحدثين الذين هم الباوني . ويمكن مع ذلك أن تكون لغة السيو مرتبطة ارتباطاً بعيداً جداً بلغة الشيروكي . أما حضارتهم فلا تختلف اختلافاً أساسياً عن حضارة السيو بسوى أن البيروزون لا يلعب إلا دوراً ثانوياً في حياتهم الاقتصادية ولم يلهم خيالهم أي إلهام . أما التومسكارورا أقرباء الشيروكي فلم يكونوا يعيشون بعيداً عن هذا المكان ، بينما بقية القبائل التي تمت لهم بصلة القربى من أمثال الإيروكوا المشهورين فكانت تحتل مناطق الغرب

والشمال . وفي نحو من عام ١٠٠٠ للميلاد كان لابد لها من أن تستقر
استقراراً كاملاً في مواطنها التي وجدناها فيها في القرن الثامن عشر أي
بنسلفانيا وولاية نيويورك .

في هذه المنطقة كلها كانت الذرة هي العنصر الحيوي ، بينما حل
لدى الشيروكي وأقربائهم تعديل لهذا الوضع . فشعوب الإيروكوا في
اندفاعتها النشطة عبر السهول من الجنوب إلى الشمال شعرت بالحاجة
إلى تنظيم تبنت فيه الحياة الحربية التي كانت تمارسها من خلال
اندفاعاتها على الدوام . ونجم عن ذلك إذن انتقال في اهتمامهم
الأساسي حيث تطورت لديهم حضارة حربية من الدرجة الأولى
وأصبحت الحرب غاية يسعون إليها لذاتها ، وسرى عما قريب كيف أن
الإيروكوا سيتبنون سياسة توسعية امبريالية شبيهة بسياسة الأزتك في
وادي المكسيك . ومن هذه الجهود سيظهر الاتحاد الشهير الذي كان
مؤسسه هياواثا HIAWATHA النصف أسطوري ، هذا إذا لم يكن هذا
الاتحاد قد ظهر فعلاً خلال هذه الفترة التي نعالجها . وقد أدى ذلك
بطبيعة الحال إلى شيء من الانحطاط في الزراعة . فهنا كما لدى السيرو
نجد سيدان ، ولكن بينما كان صيد البizon لدى هؤلاء الأخيرين هو
الذي قطع كوادرم الزراعة القديمة فإن ما قطعها لدى الإيروكوا
كانت حاجتهم إلى تنظيم حربي حكومي أكثر فعالية يستطيع أن يتم
عملية التغيير .

وإذا تابعنا مسيرتنا نحو الجنوب فإننا نصل في النهاية إلى سواحل
جورجيا وفلوريدا حيث نجد قبائل جديدة ولغات جديدة . وفي عام
١٠٠٠ للميلاد كانت الشعوب التي تسكن هذه المناطق ، كالشوكتو
والكريك والييموكوا ، كانوا كلهم غزاة جداً قدموا من حوض
الميسيسيبي الأدنى ، وكانت ثقافتهم في جوهرها شبيهة بثقافة السيرو

الذين تربطهم بهم أيضاً قرابة لغوية . ومع ذلك فإن حياتهم في بعض الأمور كانت تذكرنا بحياة أجداد السيولان الزراعة بقيت لديهم مهمهم الأول . وكانت المدن هنا أكثر تطوراً وفيها نزعاً إلى الاتحاد ضمن اتحادات دفاعية دون أن تؤدي مثل هذه الاتحادات إلى روابط وثيقة وفي الحالات التي لا تكون هي نفسها في حالة حرب فيما بينها ، ومع ذلك فإننا لا بد من أن نسجل أن الكريك وأقاربهم كانوا منذ ألف عام ، وعلى العكس من حياة السيول المسالمة في الشرق ، كانوا فريسة لذهن عصبي قلق ، وإن هذا لا يدهشنا لأنهم إننا قدموا من منطقة تشكل بؤرة حقيقية يختلط فيها الكثير من الشعوب .

وفي هذا المجال لا يبد لنا من أن نطلب السماح من زملائنا النروجيين ، لأنه حتى الأساطير الأقل قابلية للثقة من أساطيرهم لا تذهب إلى التأكيد بأنهم اجتازوا مضيق فلوريدا ، وهذا مؤسف من بعض النواحي ، لأن هؤلاء المغامرين البواسل لو اجتازوا المضيق فإنهم كانوا سيصلون إلى بحر كان بالنسبة لأمريكا ما كان البحر المتوسط بالنسبة لأوروبا . ففي خليج المكسيك كانت كل أنواع المؤثرات تتلاقى ، وكل الحركات الثقافية التي تشع من يوكاتان وأمريكا الوسطى والمكسيك وحتى من جزر الهند الغربية المشعة ومن السواحل البعيدة لأمريكا الجنوبية كانت تجد ملجأ لها هناك . فعن طريق هذه المياه وهذه الشطوط دخلت الحضارات على التوالي إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية . وليس في استطاعتنا أن نحدد في أية لحظة حدث أول غزو مكسيكي . على أن ثمة نقطة مؤكدة هي أنه في نحو من العام ١٠٠٠ للميلاد كانت معظم الغزوات التي خرجت من المكسيك قد فقدت الكثير من زخمها .

هذا الإعصار الجنسي الذي لاحظناه في حوض الميسيسيبي

الأدنى لم يكن سببه الاضطرابات الناجمة عن الغزاة المكسيكيين . كلا ، فلقد كان لهذا الاختلاط سبب مختلف تمام الاختلاف ناجم عن الجهود التي بذلها برايرة حديشو المدنية لكي يساهموا في الإرث الجديد ويوافقوا طريقة حياتهم مع مكاسب المدنية التي جلبتها المكسيك إلى مناطقهم . ففي المنطقة الضيقة نسيبا والممتدة حول الميسيسيبي الأدنى كانت القبائل والحضارات والألسنة تتصارع فيما بينها . فالى جانب السيو نجد هنا الأداي والكادوهاداشوا الأقرباء القريين إلى الباوني ، والكريك والشوكتاو والتشي و قبائل أخرى كثيرة كانت تجمعها روابط قري وثيقة بشعب كواهويلا على الشاطئ ، الآخر من ريوغراند في المكسيك . ومع ذلك فثمة أمر يفوق في أهميته كل الاعتبارات الأخرى ، ذلك انه مهما اختلفت هذه الشعوب في اللغة أو الهيشة الجثمانية فان الاختلافات الثقافية فيما بينها كانت ضعيفة . وحضارتها بوجه عام مهما كانت أكثر تعقيداً من حضارة السيوفانها كانت قد وصلت إلى نقطة مينة . وعندما دخل الاسبانيون في القرن السادس عشر في احتكاك معها لأول مرة وجدوا عندها كثيراً من العناصر التي لم يصادفوها في مكان آخر وخاصة لدى السيو الشرقيين على كل حال ، كالمعابد الحقيقية والتماثيل ونظام للطبقات محدد تمام التحديد .

ومهما يكن من أمر فإننا هنا أمام ثقافة أكثر تطوراً من ثقافة السيو . ونحن لا نجهل أن هذه الشعوب كانت تعيش بين خرائب وأنقاض حضارة كانت أعلى منها أيضاً . وليس علينا إلا أن نصعد في الميسيسيبي نحو الشمال ثم نبتعد عنه نحو الشرق حتى نجد بقايا هذه الشعوب التي عفا عليها الزمان . وفي القرن السادس عشر عندما قام دي سوتو باكتشاف الميسيسيبي وجد أحد المسافرين معه شروط الحياة نفسها التي كان يعيشها السكان هناك في حوالي عام ١٠٠٠ للميلاد . فقد رأى

عدداً كبيراً من التلال الاصطناعية أو الماوند «MOUNDS» وأماكن مسورة ENCLOS كان بعضها مستديراً وبعضها متدرجاً وبعض أسوارها كان على هيئة الحيوانات. وقد يحدث أحياناً عندما نتعامل مع التنقيبات أن نجد حتى اليوم رؤساً بشرية تم نحتها بمهارة كما تكشف عن آثار لاستعمال النحاس استعمالاً متسدياً وبعض المحاولات للصناعات الذهبية. وذلك كله يتجاوز إمكانات الشعوب التي كانت تعيش هناك منذ ألف عام في المناطق التي تجاور مباشرة هذه «الماوند» أو التلال الاصطناعية.

فمن الذي شاد هذه التلال؟ إنهم هنود ولا شك، وربما كانوا جدود السيوا والكريك. وعلى كل حال فإنهم كانوا يتمتعون بحضارة أعلى بما لا يقاس من حضارة القبائل التي خلفتهم. وليس بإمكاننا أن نحدد اليوم أي نوع من الحكومات كانت حكومة بناء هذه التلال وأية ديانة كانت ديانتهم. إلا أن بعض التنقيبات الحديثة أظهرت أن بعض هذه التلال قد استعمل لغايات دينية لإقامة الاحتفالات عليها، تلك الاحتفالات التي لم يكن لها في تعقيدها شيء لدى السيوا أو الكريك حتى في أعظم أيام مجدهم.

ولقد عرفت حضارة بناء «الماوند» انتشاراً جغرافياً واسعاً. وآثارها تمتد اليوم من الأطلسي حتى الميسيسيبي ومن فلوريدا حتى وسكونسن الوسطى وحتى ميشيغان، كما امتد نفوذها أبعد من ذلك إلى الغرب، ذلك لأنه تم كشف آثارها في الجنوب من كانساس بين قبائل من أمثال الباوني، وحتى خلف الجبال الصخرية وحتى في نيومكسيكو. والواقع أن كل الثقافات الوطنية إلى الشرق من الميسيسيبي إنما تمثل في أجلى إشراقها ما تمكنت من الاحتفاظ به من هذه الحضارة.

أما إلى الغرب من الميسيسيبي، وبخاصة على المجرى الأدنى

من النهر، فإن الوضع يختلف بعض الاختلاف، فهنا كان يعيش الباوني كما رأينا. ومهما كان التأثير الذي مارسه بناء الماوند على هؤلاء الهنود فإنه لا يمكن أن يقارن بالتأثيرات التي تلقوها من مناطق أخرى والتي كان أحدثها ما وصل إليهم من الشعوب التي كانت تسكن وادي ريوغراندي في نيومكسيكو. ومن سوء الحظ أن حضارة الباوني هي اليوم خاصة جداً لدرجة أننا لا نستطيع أن نستخلص منها أي استنتاج مؤكد عما كانت عليه قبل ألف عام من الزمان. ومع ذلك فنحن نعرف أنهم كانوا يملكون نظاماً مبنياً على العائلات الكبيرة CLANS وأن قبائلهم كانت تنقسم إلى زمريين. ونحن نجد هذين التقسيمين لدى السيرو وهنود البويلو في الديوغراندي، وكل ما عدا ذلك هو رجم في الغيب. على أن شيئاً واحداً نستطيع تأكيده هو أن الذرة كانت يومذاك كما هي اليوم المركز الذي تدور حوله حياتهم وأنهم كانوا يملكون ديانة طقسية معقدة غارقة في رمزية رائعة لها علاقة بكائنات إلهية نجمية أو بأشياء مقدسة كانوا يسمونها باكي PAQUETS.

وبحسب ما لدينا اليوم من ثقافة البويلو في ريوغراندي الأعلى نعلم علم اليقين أن الباوني أعاروهم عناصر عديدة من ديانتهم وطقسهم ومن تلك الرمزية التي تلعب في حياتهم أكبر دور. على أن ثمة عناصر أخرى هي من إبداعهم وحدهم، وعناصر ثانية أتتهم من التولتيك TOLTEQUES البعيدين. وقد تمكن الباوني والقبائل التي تمت إليهم بصلة القرابة من اذابة كل هذه المقتبسات في ثقافة جديدة في جوهرها ما لبثت أن مدت تأثيرها بدورها بعيداً على القبائل التي احتكت بها وبخاصة قبائل السيرو.

وبعد عدة قرون هاجر أقرباء للباوني وأقرباء للميسورينو نحو الشمال إلى السهول الكبرى التي تمتد بين الميسيسيبي والميسوري حيث التقوا

هناك بقبائل بدائية هي قبائل الألفونكان التي قدمت من كندا واندفعت نحو الجنوب . وهذه القبائل المهاجرة هم الأقدام السود كما يسمونهم ، ويتألفون من الأراباهو ومن الشين ، وساهمت كل هذه القبائل مجتمعة في بناء نظام جديد مركب هو ما يسمونه حضارة البراري .

وهكذا فإن الباوني والمجموعات التي تمت لهم بصلة القريب وضعونا بطريق غير مباشرة على احتكاك مع نموذج من الحضارة أكثر إثارة للاهتمام وأكثر تعقيداً مما كنا قد عرفناه إلى الشمال من الريوغراند مثلاً في البويلو من سكان نيومكسيكو وأريزونا . فهنا كل المظاهر الثقافية من زراعة وتنظيم اجتماعي ودين وفنون أو آداب شفوية بلغت درجة عالية من التطور . على أن حضارة البويلو هذه لم تمارس في بعض النواحي على بقية أنحاء الولايات المتحدة تأثيراً من الدرجة التي نتوقعها منها . فآثرها على الباوني كان عميقاً بدون شك . أما القبائل التي كانت تحيط بهم إحاطة مباشرة والتي عقدت صلات معهم كالأباش والنافاهو فلا بد أنهم كانوا يدينون لها بكل ثقافتهم ، وذلك يسري أيضاً على شعوب كاليفورنيا الجنوبية ، ولكننا كنا نتظر المزيد من ثقافة كهذه الثقافة العظيمة . ويفسر تأثير البويلو الضعيف نسبياً بما يلي : لقد كان شعب البويلو شعباً مسالماً أساساً متقوقماً حول نفسه دون أي روح تبشيرية يحملها تجاه الآخرين ولا يشارك إلا نادراً في حملات حربية وتكاد تكون أعماله العسكرية جميعها على سبيل الدفاع . ويبدو أنهم كانوا مشغولين أثناء أوقات فراغهم باتقان فنونهم وخلق طقوس غنية دقيقة وصارمة تذكرنا بما كان عليه شأن القدماء من سكان مصر .

هذه الحضارة الموحدة الكاملة التي أقامها شعب البويلو نعرف الآن أنها كانت حصيلة تاريخ ملتو طويل . فالالتحامات التاريخية للقبائل التي ساهمت في تطورها ووجود بعض العادات تدلنا على أننا

أمام خاتمة لسلسلة طويلة من التراكبات . واليوم يتكلم البويلوار بربع لغات مميزة على الأقل ترتبط كل منها بلغة غريبة عن هذه المنطقة . فالنتيجة واضحة وتفرض نفسها إذن ، فنحن أمام عملية امتصاص تدريجي وبن قامت بها شعوب مختلفة لحضارة أقدم منها . فما هي هذه الحضارة وأين نستطيع أن نكشف عن آثارها؟

من حسن حظنا أنه ليس علينا أن نبحث في مكان شديد البعد . ففي هذه المنطقة نفسها كشفت لنا التنقيبات التي تمت في الانقراض القديمة عن طبقات أركيولوجية منضد بعضها فوق بعض وبخاصة في أشكال الفخار . فإذا رتبنا هذه الفخاريات في نظام زمني ظهرت أمامنا ملاحظة مشيرة للفضول هي أن الفخار الذي يوجد في أسفل هذه الطبقات ، أي الفخار الأقدم ، منطبق على ما كشفه الاسبانينون في القرن السادس عشر فيما كان يسمى يومذاك أنقاضاً . وهذه الانقاض لم تكن تتوضع دائماً فوق التلال وإنما في أغلب الأحيان فوق جروف FALAISES صعبة البلوغ وفي مغارات . وكانت تمتد على منطقة واسعة جداً من أتاتيه وكولورادو متجاوزة حدود المكسيك إلى ولايات كواهويلا وشيهواهوا وجاليسكو وربما أبعد من ذلك إلى الجنوب أيضاً .

وثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن سكان الجروف هؤلاء - كما يسمونهم بوجه عام - هم أسلاف وأجداد البويلوالحالين . وكل من زاروا حديقة ميزافيرد الشهيرة في كولورادو الجنوبية قدروا جمال هذه المدن المبنية فوق الجروف . فاطلال ميزافيرد على سبيل المثال تتوضع في مغارة طولها مائة وثمانية وعشرون متراً وعرضها أربعة وعشرون متراً وارتفاعها الأقصى أربعة وعشرون متراً أيضاً . وهناك نجد ، بين أشياء أخرى ، بقايا بناء هوبيت ضخمة جماعي لا بد أنه كان يضم ما يقارب مائة وسبعين غرفة دون أن نحسب حساباً للطوابق العليا . وكان الناس

الذين يعيشون في هذه البيوت يمارسون زراعة كثيفة كان السري الصناعي فيها يلعب دوراً من الدرجة الأولى . وقد حسب الدارسون أن الخزانات الموجودة بالقرب من الخرائب المسماة لوس مويرتوس في أريزونا كانت تتسع لكمية من المياه تكفي لري ما لا يقل عن ستين ألف هكتار من الأرض . وكان يزرع هنا ، بين أشياء أخرى ، القطن الذي كان يستعمل استعمالاً واسع النطاق . كما وجد فخار جميل متنوع الأشكال حيث كان بعضه مزيناً بزخارف متعددة الألوان مشغولة بآثقان شديد . ووجد كثير من الوجوه البشرية والحيوانية ولآلىء من الفيروز وفسيفساء من الفيروز أيضاً . والخلاصة أن كل شيء يشير إلى ازدهار حضارة عظيمة في الماضي أصبح البويلو الحاليون ورثتها وأحفادها .

ولكن أليس من حقنا أن نتساءل : من أين قدمت هذه الحضارة ؟ هل هي أصيلة في تلك المنطقة الشاعرية التي تشكوه ذلك من شيء من قلة الخصب أم أن علينا أن نفتش عن أصولها في أمكنة أخرى ؟ . . من حسن حظنا أننا نمتلك في هذا الموضوع بعض القرائن . فقد وجد في بعض الخرائب أجراس من النحاس وتزيينات أخرى صنعت من هذا المعدن نفسه ، إضافة إلى أوعية Vases مكفنة من نموذج خاص جداً . وليس ثمة لدينا شك في المكان الذي قدمت هذه الأدوات منه ، ذلك لأنه لا يوجد في أمريكا إلا منطقة واحدة يمكن أن تصنع فيها وهي المكسيك الجنوبية ويوكاتان . وثمة قرائن أخرى تؤكد هذه الفرضية تتمثل في بعض تفاصيل فن البناء ، إضافة إلى أمر واقع آخر هو معرفة هؤلاء القوم لزراعة الذرة مع العلم بأنه ليس من شك في أن الذرة إنما دُجنت وزرعت في بدء أمرها في جنوبي المكسيك أو في أمريكا الوسطى .

والواقع أن السؤال الوحيد الذي يمكن أن يطرح هو في أي عصر

وبأية صورة وصلت هذه المؤثرات المكسيكية إلى شعوب البويبلو، وهي مسألة لا ينبغي لنا على كل حال أن نناقشها هنا. فما يهم أن نشير إليه هو أن الحضارة العالية التي بلغها هذا الشعب الوطني الذي كان يسكن إلى الشمال من نهر ريوغراندا إنما قامت على قاعدة عريضة وغنية هيأها لها شعب كان يسكن بعيداً منها إلى الجنوب.

ولكن فلنقف هنا لنراجع باختصار بعض النقاط الرئيسية قبل أن نمضي في رحلتنا نحو الجنوب.

مهما كانت عظيمة تلك المنجزات الحضارية الوطنية التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية فإن هذه القبائل لم تأت بأية مساهمة أساسية بالمعنى الصحيح. فمن الإرث الغني الذي وصل إليها على درجات وفي أوقات مختلفة قامت هي بالاختيار، فبدلت ونسقت وأدخلت تخصصات جديدة واخترعت أحياناً تفاصيل جديدة ولكنها لم تضيف مع ذلك أشياء جوهرية، بل على العكس من ذلك نلاحظ انحطاطاً جرى في كل مكان. ويشير تاريخ الشعوب التي عاشت إلى الشمال من الـريو غراندا، يشير بوجه خاص إلى نسيانها المتهادي لوطنها الكبير الذي يقع بعيداً منها نحو الجنوب. وكان البرابرة الشماليون يضغطون عليهم من كل جانب، وفي وادي الـريو غراندا الأعلى لم يتمكن البويبلو إلا بكل صعوبة من الصمود طويلاً أمامهم وأمكنهم أن يضيفوا عليهم شيئاً من حضارتهم قبل أن يهزموا أمامهم الانهزام الأخير.

وعندما اكتشف الإسبانيون العالم الجديد وأريزونا وجدوا المقاطعات التي يسكنها البويبلو وقد ارتدت إلى بقعة صغيرة محصورة. وكان الأوت والكومانش والأباش، وهم رجال حرب أشداء ولكنهم محرومون تماماً من كل مظاهر الحضارة، يرتادون هذه الجروف المهجورة والمدن المحصنة التي تقع فوق هذه الهضاب.

وكانت اصول هؤلاء البرابرة تقع في الغرب والشمال، في كاليفورنيا الوسطى والشمالية وأريغون وواشنطن وسهول كندا ومضابها الغربية. وما يثير الفضول أن هذه المناطق كلها لم تكن تضم أية اشارة إلى وجود حضارة عالية فيها، ومع ذلك نجد في أقصى الشمال الغربي، في واشنطن الشمالية وكولومبيا البريطانية، انتشار حضارة عجيبة ليست زراعية وانما هي من نموذج خاص. ففيها يتمثل نظام متطور للطبقات يرتبط بمقدار ما تمتلكه كل طبقة من ثروات مادية، وقد خلق مؤسسة اجتماعية دينية أظهرت مهارة مدهشة في نحت الخشب وشغل الأردواز. ثم انتشر تأثير هذه الشعوب في كل الاتجاهات نحو الشمال والغرب والجنوب حتى بلغ كاليفورنيا الشمالية. على أن كل ذلك كان في العصر الذي نتكلم عنه جزءاً من مستقبل بعيد.

ولكن لننشد إلى أجداد البويبلو، إن الذرة والقطن وفق البناء الذي عرفه سكان الجروف وأحفادهم، وفسيفساء الفيروز، وأجراس النحاس، كل هذه العناصر كانت ذات اصول مكسيكية. أما عن أي طريق نفذت إلى الولايات المتحدة فهذا سؤال له أهمية ثانوية. إن كل الطرق تؤدي إلى وادي مكسيكو، ولكننا عندما نبلغ هذا الوادي ندرك أننا أصبحنا في تيه كبير، وليس الأمر أننا لا نزال بعبيدين عن أن نصل إلى نهاية أبحاثنا ولكن الأمر هو أننا لا نزال منها في بداية الطريق.

إن الأزتك وأقاربهم من القبائل التي كانت تسكن وادي مكسيكو والأراضي المجاورة له في عام ١٥١٩م في اللحظة التي تم فيها الفتح لم يكونوا إلا قادمين جدداً على المكان، غزاة أتوا من الشمال. وإذا ما نحن تقدمنا من الجنوب إلى الشمال مثلاً فإننا سنرى حضارة تنطفيء شيئاً فشيئاً بمرورنا بقبائل نصف بربرية في غوادالاجارا من ولاية جاليسكو، ثم برابرة حقيقيين كالأوت UTE والشوشوني في أوتاه ونيفاذا.

وفي العام ١٠٠٠ للميلاد لم تكن مدينة مكسيكو قد وجدت بعد. وفي هذا الزمن كان الأزتك - وهم شعب صغير نشيط نصف متحضر - يسكنون إلى الشمال من وادي مكسيكو ويكافحون بيأس قبائل من أقربائهم كانت أكثر حضارة منهم لكي يحافظوا على الأرض التي احتلوها منذ قليل. وإلى جانب أن أعداءهم كانوا متحضرين فإنه لم يكن في استطاعتهم أن يضاخروا بثقافة قديمة لأنهم لم يسبقوا الأزتك في البلاد إلا منذ حوالي ثلاثة قرون على الأكثر. ومع ذلك فقد كانوا يعرفون - وهذا مسألة هامة جداً لنا - قصصاً نصف أسطورية يحكمونها عن الشعوب التي كان أجدادهم قد وجدوها عند وصولهم إلى هذا الوادي التاريخي وعما كان لديها من عادات.

ولنفترض أن أقارب الأزتك هؤلاء إنما دخلوا إلى الوادي من الشرق. فقد وجدوا عند دخولهم وعلى بعد حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً من مدينة مكسيكو الحالية، وفي مكان يسميه الأزتك تيوتيهوا كان، وجدوا في هذا المكان ثلاثة أهرامات شاحخة ترتفع من أعماق الوادي ومنطقة غنية بالمدن الصغيرة تتمثل فيها كل مظاهر الوفرة والرخاء. وكان أول ما فعله هؤلاء الغزاة هو قيامهم بالتخريب. ولكن مهما كانت بالغة خسائر هذا التخريب فإنه لم يكن غير قابل للإصلاح. وحدث ما يحدث في أغلب الأحيان، فهؤلاء المهاجرون القادمون من الشمال ما لبثوا أن استقروا في هذه المنطقة وتبنوا حضارة الشعب الذي انتصروا عليه. وليس من المحتمل أن يكونوا قد عدلوا إلا قليلاً ما أخذوه عن أسلافهم، بل إنهم بالتأكيد لم يضيفوا إليه على ما يبدو إلا القليل. وعندما وصل الأزتيك بدورهم تبنوا هم أيضاً تبنياً ثانياً حضارة أقربائهم من القبائل التي سبقتهم. فإذا ظهرت مكسيك الأزتك

لكوردتيسر ورجاله رائحة عظيمة تامة فإن بإمكاننا أن نتصور كيف كانت حضارة الشعب الذي سى بنفسه أهرامات تيوتيهواكان ولقد أظهرت تنقييات حديثة حرت في تيوتيهوا كان أن من الضلال أن نؤكد بأن هذه الحضارة كانت حضارة محلية . فإلى الجنوب ، دائماً إلى الجنوب علينا أن نتوجه . وتقودنا تحرياتها إلى الجنوب الشرقي حتى نجد في ولاية داكساكا شعباً يتكلم لغة عميرة عن لغة الأزتاك ويمثل حضارة مختلفة . وهنا في هذه المدن الصغيرة المبعثرة في تجويفات من الوديان المخصصة نجد مملكة مركزية قوية كان يوجد على رأسها دائماً ملك وكبير كهنة ، وكانت الطبقات فيها متميزة تمايزاً شديداً لدرجة أن العامة كان لهم ألقابهم الخاصة التي يتوجهون بها بالكلام إلى النبلاء . وكل شيء هنا يشير إلى حضارة قديمة . ومع ذلك فإنه لا ينبغي علينا أن نسد لهذه الشعوب من الزابوتيك والميكستيك أصالة عريقة . على أن هؤلاء الشعوب ان لم يكونوا مبدعين فقد كانوا على الأقل وسطاء بين مؤسسي الحضارة الكبرى وبقيّة أمريكا الشمالية وكانوا يعيشون بالقرب من هؤلاء المؤسسين . وإذا تابعنا جريتنا هذه المرة نحو الشمال الغربي فإن هذه الظواهر تزداد وتتضاعف ، ولا نلبث أن نجد صنماً بدائي النحت مزيناً بكتابة هير وغليفية قديمة . وأخيراً في ولاية شيايا بالقرب من الحدود التي تفصل حالياً المكسيك عن غواتيمالا يظهر أمامنا الهدف الذي طالما سعينا إليه : خرائب معبد بالينك .

في بالينك ، في وسط التلال المكسوة بالغابات الكثيفة ، كانت ترتفع فيما مضى من الزمان بين الحضرة المدارية مدينة واسعة رائعة واحدة من التحف الأكثر كمالاً في حضارة المايا ، وقد هُجرت هذه المدينة في حوالي عام ٧٠٠ للميلاد عندما هاجر بناتها إلى الشمال إلى يوكاتان .

ونحن نجهل الأسباب التي حدثت بهم إلى هذه الهجرة واختلاء المدينة وان كنا نعرف أن كثيراً من مدن المايا الأخرى هُجرت هي أيضاً بحيث بقيت أسباب هذه الهجرات سرّاً مغلقة شأنها في ذلك شأن أصول هذه المدن الغامضة .

والى الشمال الغربي لا نجد ما يمكن أن يقارن بحضارة المايا هذه . أما في الجنوب الشرقي فإننا - على العكس من ذلك - نشهد سلسلة من الثقافات تمتد حتى برزخ بنامسا . وفي هذه الغابة المدارية حيث تتناوب الغابات مع الأدغال الكثيفة تبدو لنا واضحة العناصر الثقافية الرئيسية التي استمد منها وطنيو أمريكا الشمالية أصول ثقافتهم . وقبل كل شيء كانت الذرة قد قدمت من هذا المكان ، وبدونها لم يكن بالإمكان قيام زراعة ولا استقرار ولا تنظيم ولا تركيز في السكان ولا قصور حجرية ولا حكومة ولا ديانة معقدة ولا كمال فني . وعلى الرغم من أن الأهمية الأولى للذرة قد انحلت بمقدار ما أصبحت حضارة المايا أكثر تعقيداً فإن هذا النبات ما لبث أن استعاد مزاياه عندما امتد نفوذ المايا إلى الشمال . فقيما وراء ريوغرانده أو خليج المكسيك كان يشكل المركز لكل حياة اجتماعية واقتصادية ودينية ، وحيشا توقفت زراعة الذرة كانت الحضارة تتوقف معها أيضاً .

وعندما نصل إلى برزخ بنامسا نجد أنفسنا أمام انقطاع في هذا الاستمرار . فإذا قمنا الأمور بما وجدنا في أمريكا الشمالية كان من المنتظر أن نجد هنا حضارة تتنامى بالتدريج كلما توجهنا إلى الجنوب من هذا البرزخ وكلما توغلنا داخل أمريكا الجنوبية . والواقع أن مستوى الحضارة في كولومبيا والإكوادور وبيرو وبوليفيا بلغ ما بلغه عند المايا ، ولكن فروقاً عميقة كانت تميز بين الحضارتين . وكما كانت كل الطرق في أمريكا الشمالية تبدو وكأنها تقود إلى وادي مكسيكو كذلك كان الأمر في أمريكا

الجنوبية إذ كانت كل الطرق تبدو وكأنها تقود إلى إنكا INKA اليه و، أو
بعبارة أخرى نحو الحضارات التي اكتسبتها الإنكا. وكما حدث بالنسبة
للأزتك وأسلافهم المباشرين فإن الإنكا الفاتحين في البير وما لشوا أن
امتصهم ضحاياهم الذين أحرزوا عليهم الانتصار.

ومع ذلك، فإن من السخرية أن نوازن بين الحضارات التي كانت
تمتد من بناما حتى بير و، فحيثما اتجهنا في هذه الأماكن كانت الحضارة
مرتفعة، ولكن هذه الحضارات كانت تختلف من جميع الوجوه وبشكل
واضح عن حضارة المايا. ويمكننا أن نقول إنها في إحدى النواحي فقط
كانت أدنى من حضارة المايا لأنها لم تكن تملك نظاماً للكتابة يمكن أن
يقارن بكتابتهم الهيروغليفية. وإذا كان بإمكاننا أن نقارن بحضارة المايا
في ميدان البناء والفخار فإنها تفوقها بمراحل في أعمال الذهب والفضة
والنحاس. وكما كان الأمر في أمريكا الشمالية فإن الذرة زُرعت هنا أيضاً
على نطاق واسع ولكن كان عليها أن تتقاسم سيادتها مع البطاطا التي
يعود أصلها إلى البير و. وقد مارست هذه النبتة هنا نفوذاً على حياة
هذه الشعوب وخيالها أقوى بكثير مما فعلته الذرة فيها.

وقد يكون من الصعب علينا أن نصدق أنه لم تكن توجد أية صلة
بين أمريكا الوسطى وهذه الحضارة الأمريكية الجنوبية. والواقع أن
السنوات الأخيرة قدمت لنا الكثير من البراهين على وجود تبادل مستمر
بين الآلهة الزراعية لكلتا الحضارتين، ولكن يبدو أن هذه العلاقات
كانت علاقات الند للند، وبصورة عامة فإن أمريكا الجنوبية أعطت
لحضارات أمريكا الوسطى أكثر مما أخذت منها.

وقد لعبت حضارات أمريكا الجنوبية الكبرى في بقية هذه القارة
الدور نفسه الذي لعبته حضارة المايا في أمريكا الشمالية. فقد مدَّ الإنكا
ومن سبقهم نفوذهم نحو الجنوب حتى شيلي. وبعد أن اجتازوا جبال

الاندواخترقوا ما يسمى الآن بالأرجنتين أسسوا هناك حضارة هامة هي حضارة الكالكاشاكي . ولكن هضبة غرانشاكو غير المضيفة ما لبثت أن اوقفت تقدمهم في هذا الاتجاه . أما في الشمال فإن الكولومبيين القدماء والإكواتوريين أثروا تأثيراً بالغاً في قبائل فنزويلا وامتد هذا النفوذ بلا مرء حتى الأسارون ، ولكن العاصبة العذراء وقفت دون امتداده إلى ما وراء ذلك .

وإذا استثنينا شريطاً ساحلياً ضيقاً يمتد على طول المحيط الهادي فإننا لا نجد في أمريكا الجنوبية حضارات متميزة أو معقدة . والمنطقة التي كان يشغلها الهمجيون كانت عظيمة الاتساع بل أكثر اتساعاً مما كان عليه الأمر في أمريكا الشمالية . على أننا لا يجب أن نستخف هؤلاء الهمجيين لأنهم يتمتعون بطقوس وعادات هامة بعضها غني الدلالة ويبدو أنه قادم من موطن بعيد يقع ما وراء المحيط الهادي في جزر بحار الجنوب .

لقد انطفات في الغابة البرازيلية آخر ومضات هذه الحضارة كما انطفات على هضبة أوتاه ونيصادا الكبرى . على أن وطني الولايات المتحدة كانوا أكثر حظاً من وطني البرازيل والأرجنتين . فما زالت تسمع أصداء ضعيفة من الحضارة الأم في الشمال حتى لدى المودوك البداة في الأوريغون . ومع ذلك فإن ثقافة المايا بانتقالها من يد إلى يد تحولت حتى غدت حائلة المعالم ، ولا نكاد نميز بعضاً من تفاصيلها الثانوية إلا لدى بعض من القبائل الأكثر بعداً وجفاء .

والوطنيون في الولايات المتحدة الأمريكية لا يزالون يتمتعون بميزة أخرى هي أن بعضاً من القبائل التي كانت تعيش في وقت ما بالقرب من منبع حضاري ما لبثت أن هاجرت في النهاية نحو مناطق جديدة بعيدة ، فتجم عن ذلك أن شعباً كان أجداده في آن واحد جيراناً

وورثة لبنة «الماوند» أي ورثة بعيدين لتقاليد المايا، وجدوا أنفسهم في
النهاية محاطين بقبائل بدائية غريبة عليهم في ويسكونس الشمالية على
شواطئ غرين باي GREEN BAY .

الفصل الثاني

المايا، منبع الضياء

في عام ١٥٢٤م، أي قبل خمس سنسوات من الاستيلاء على مدينة مكسيكو أوتيشوشيتلان كان القائد الكبير فرنان كورتيز يتقدم موعلاً نحو الجنوب حتى اجتاز ما هو الآن جمهورية هندوراس الصغيرة. وكانت يومذاك أصعب اختراقاً مما هي عليه اليوم.

كان ثمة غابة كثيفة عذراء تسد عليه الطريق. وكانت الخضرة غزيرة رائعة الجمال، والهواء مطربروائح كثيرة التنوع بدءاً من أريج الزهور الناعم حتى عفن المواد الفاسدة التي تتحلل. وكان الجو حاراً ورطباً والمalaria تهدد الجميع، وعناكب ضخمة جعلت من المستحيل أية إقامة تمتد فترة طويلة، وأخيراً أرجال من الحشرات الناثية السامة التي تجعل من المستحيل التمتع بنوم ليلي.

عبر هذه الغابة الملتفة الكثيفة كان كورتيز وجنوده يتقدمون بكل بطء فاتحين أمام أرجلهم بالفأس ممراً لأقدامهم. وإذا استثنينا مصاعب الطريق فإنهم لم يتعرضوا لأي حادث مهم. وفي نقطة ما من نقاط

الرحلة من كورتيز على بعد ثلاثة فراسخ من نهر صغير دون أن يتوقف في هذا المكان لأنه لم يثر فيه أي اهتمام . ومع ذلك فلو أنه اتجه نحو مجرى هذا الماء فلابد أنه كان سيجد على ضفافه خرائب مفككة لما كان في الماضي مدينة رائعة لا يضاهيها شيء مما كان قد رآه أثناء مسيرته التاريخية من فيراكروز إلى مكسيكو - تينوشيتلان . فقيما مضى كانت تتصب هنا كوبان COPAN إحدى مفاخر حضارة المايا .

فيما مضى ، فوق سهل كبير طوله اثنا عشر كيلومتراً وعرضه ثلاثة كيلومترات ، كان منظر أخاذ يطالع من ينظر إليه . الشوارع والساحات والعروضات كانت مبلطة بالحجر والاسمنت الأبيض المصنوع من الكلس ومسحوق الحجارة . وكان نظام واسع للري في خدمة المدينة مؤلف من أقنية مغطاة ومسارب تحت الأرض من الحجر والاسمنت . وعلى الشاطئ الأيمن من النهر في قلب المدينة نفسها كانت ترتفع المجموعة الرئيسية من الأبنية من معابد وقصور ومنشآت عامة .

في هذا التيه من الآثار يقع نظرنا على أول بناء عام في أمريكا . تبلغ مساحته سبعين متراً مربعاً ، وقد بني على أساس أن تقابل واجهاته الجهات الأساسية الأربع . وفي داخل البناء الذي يبلغ ارتفاعه ثمانية عشر متراً توجد ساحة مساحتها أحد عشر متراً مربعاً ، ولا بد أن المجموع كان يشكل منظراً مذهلاً .

ويحيط بالساحة نفسها صفوف من المقاعد ترتفع على شكل أمفيتياتر حتى علو ستة وثلاثين متراً مبنية من كتل كبيرة من الحجارة المشطوفة بكل دقة والملصقة ببعضها دون مساعدة من ملاط . وفي وسط الوجه الغربي من البناء سلم وإلى الشمال منه معبدان جميلان جدران أحدهما الداخلية مغطاة بكساء دقيق من الجص فوقه وجوه ومشاهد رسمت بألوان عديدة ، أما الأفاريز فهي مزينة بالجص وزينات

استعملت فيها الألوان الصارخة نفسها . وتغطي الجدران الخارجية من المعبد وجوه خرافية بينما يلف جدرانها الأربعة إفريز معقد مزخرف بزخارف على شكل ريش الطيور تحت أجمل نحت ، وإلى الأعلى صفوف من صور نصفية يبدو أنها لوحات كانت تحيط بالبناء .

ويشكل الجناح الشمالي من البناء المركزي هرمًا كبيراً يرتفع في جهته الجنوبية أمام الميدان سلم جميل مغطى بالكتابة الهيروغليفية يقود من الميدان إلى داخل المعبد بعلو تسعين مترًا ، وهو مزين على مسافات منتظمة بوجوه أناس جالسين .

تلك هي كوبان . وكوبان هذه ليست إلا مثالاً بين العديد غيرها من المدن وهي تمثل قمة ازدهار حضارة المايا بشكل نموذجي . بينما بنيت بقية المدن بشكل عام وفق المخطط نفسه . فعلى أكرويل صنعى مشكل من تكديس واسع للتراب كان يشكل القواعد المنفصلة لعدد من المعابد كانوا يقيمون ساحات لها اتساعات متنوعة . والأبنية بوجه عام على نوعين : المعبد والقصر . أما المعبد فكان من الخارج متعامد الزوايا ويرتفع فوق هرم عال يتشكل من عدد من المصاطب المتطبقة ويتم الوصول إليه عن طريق سلم عريض . ويتكون الهرم نفسه في العادة من كتلة متينة من الحجارة والتراب غطيت بطبقة من الإسمنت أو الحجر المشطوف . أما القصور - إذا جاز لنا أن نطلق عليها هذه التسمية - فتألف من مجموعات من الغرف المبنية فوق مصاطب واطئة غير منتظمة في أغلب الأحيان ، وربما كانت مخصصة سكناً للكهنة أو للنبل .

ونحن نعرف من فن البناء عند المايا ما يكفي لتكوين فكرة واضحة نسبياً عن ملامحه الأساسية . فقد كانوا يحصلون على الكلس بإحراق الحجارة الكلسية ثم يصنعون منه ملاطاً يضعونه على طبقات من المادة المفتتة نفسها . وكانت الحجارة مشذبة من وجهها الخارجي بينما

يبقى وجهها الداخلي على حالته الطبيعية مع طلائه بالكلس . أما الفواصل فيما بينها فكانت تملأ بالكلس والملاط مع قطع صغيرة من الحجارة لسد الشفرات .

وكانت الغرف مقبية ، ولكن القبة التي كانوا يحصلون عليها لم تكن قبة حقيقية بحسب مفهومنا لأن مفتاح بناء القبة كان مجهولاً من المايا ، وكان لهذا الجهل نتائج عميقة على فهم لأن الجدران وجب عليها أن تكون سميكة جداً لكي تتمكن من حمل ثقل السقف . وكان يحدث غالباً أن يبنوا طبقة أخرى فوق البناء الأساسي حتى أن بعض أبنية المايا بلغت درجة عالية نسبياً من الارتفاع . مثال ذلك أن معبد تيكال TIKAL بلغ ارتفاعه ثلاثة وخمسين متراً بما في ذلك الهرم والطابق العلوي .

وإذا نظرنا إلى هذه المدن عن بعد فإن بعضها يوحي لنا بمشهد يشبه مدينة نيويورك بشكل مصغر طبعاً حيث تنبثق بعض ناطحات السحاب الصغرى على أبعاد غير منتظمة عن كتلة الأبنية الأقل ارتفاعاً منها . ومن المؤكد أن لهذا التشبيه ما يسوغه ذلك لأننا إذا أخذنا بعين الاعتبار الاتجاه الشاقولي فإن كل بناء من أبنية المايا يتألف من ثلاثة أجزاء هي البنية التحتية أو القاعدة الهرمية ، ثم البناء نفسه ، وأخيراً الطابق العلوي منه . أما القصور الأكثر سعة فإنها كانت تتألف عادة من طابقين أو ثلاثة طوابق لا يتركز بعضها على بعض وإنما تتركز كلها على قاعدة متينة واحدة بحيث تكون الطبقات العليا راجعة عما دونها وبحيث يشكل مجموع البناء شكلاً هرمياً ذا شرفات . وعلى الرغم من أن الأبنية تضم ثلاثة طوابق بوجه عام فإننا نجد منها أحياناً ما يضم أربعة بل وخمسة طوابق . فهناك بناء من نوع التيكال (المعبد) يتألف من خمسة

طوابق فيها ثلاثة تراجعات متتابعة بحيث تصبح الطوابق الثلاثة العليا منه فوق بعضها بشكل مباشر.

ومع أن الكثير من معابد المايا الشهيرة خارقة وملفتة للنظر من وجهة النظر الفنية المحضة فإن فن البناء عندهم كان يستمد طابعه الخاص ليس من فن تطبق أجزاء البناء بعضها فوق بعض وانما من طبيعة التزيينات التي تكسوه، فكل نحت يكاد يكون تزيينياً ولا نجد إلا القليل من الأمثلة عن قطع لا علاقة لها بالبناء وانما هي نحت مستقل.

في كل مكان نجد أنفسنا أمام تزيينات منحوتة، في داخل الأبنية وعلى طول الواجهات كما على طول الهياكل والأنصاب الحجرية المرفوعة على واحدة من واجهاتها أو على عدد منها. وربما كانت الأكثر شهرة من هذه التزيينات هي تلك التي تعلو الواجهات، ذلك لأنها حفظت لنا بوجه عام في حالة جيدة. وفضلها تلك التي تعود إلى العصور الأقدم عندما كان الأسلوب لا يزال أكثر حرية وأكثر واقعية مما أصبح عليه فيما بعد. فواجهات هذه الأبنية كانت أقل تعقيداً من تلك التي تلتها، فهي مزينة دائماً بوجوه بشرية وأشكال ثعبانية... الخ. صنعت من الجص أو نحتت على قطع حجرية ألصقت مع بعضها لتشكيل نوعاً من الفسيفساء.

وكل هذه التزيينات المنحوتة كانت نافرة. وقد اكتسب المايا في هذا الفن نوعاً من الاتقان نادراً ما نخطاه أحد غيرهم أو ساواهم فيه. ففي الرسم الجانبي - PROFIL - للأشخاص كان فنانون المايا معصومين من كل عيب، كما أن مهارتهم في نقش ثلاثة أرباع جسم الإنسان كانت تسترعي الانتباه، ولا يمكن أن تقارن بهم لا قدماء المصريين ولا الآشوريين، فهنا نحن ننحني أمام تمكن مطلق من الفن قادر على رسم

ونحت الأعضاء في مختلف الأوضاع الممكنة ، والمهارة التقنية التي توصلوا إليها نجد أعلى تعبير عنها في الكتابة المير وغليفية المنقوشة في كوبان COPAN حيث الوجوه متاشبكة ومتفضضة بطريقة مذهشة التعقيد دون أن تضيق شيئاً من انسجامها وتناسبها .

وكان من نتيجة استعمال النحت في سبيل التزيين المطلق أن الوجه نفسه اختفى في معظم الأحيان اختفاء تاماً وراء وفرة كبيرة من التفاصيل ، ومع مرور الأيام توضحت هذه النزعة على مقياس واسع . وأخيراً وصل الأمر بالفن الذي كان في الأصل تعبيراً دقيقاً عن الأشكال الانسانية والحيوانية أن أصبح لا يمثل الجسم الانساني أو الحيواني إلا على أنه واحد من من التفاصيل في مجموع تزييني شديد التعقيد مخوف بالتلافيف والزخارف . وهكذا انتهى أمر فن النحت إلى أن يكون ملحقاً بالتزيينات مما أخر تطوره الذاتي تأخيراً واضحاً . ومع ذلك فثمة وجوه من بالينك PALENQUE تثبت لنا بوضوح أن نحاتي الحجر من المايا نجحوا في أن يكونوا الأسياد الذين لا ينازعون في مهتهم وأنهم توصلوا إلى انتاج قطع رائعة من النقش النافر . وهكذا نرى ان التفرد والغرابة في أسلوب المايا هما اللذان أثرا في فن الوطنيين من سكان أمريكا الشمالية أكثر من تأثير صفات هذا الفن نفسها في فن هؤلاء الوطنيين . فنحن لن نجد في أية منطقة تأثرت تأثراً مباشراً بفن المايا قبة حقيقية ، ولن نلاحظ في أي مكان أن النحت نجح نجاحاً حقيقياً في أن يحرر نفسه من تعقيدات البناء أو تعقيدات التزيين .

فإذا حكمنا على فن المايا من الظاهر ، إذن ، على الرغم من كل ما فيه من جدارة وميزة ، فإنه يبدو لنا خاضعاً بالدرجة الأولى لغريزة التزيين . والموضوعات التي تدخل في تزيين الواجها لا يراها حصر . وعلى العكس من فن الكثير من الشعوب الوطنية في

الأمريكيين فإن فكرة التناسق قلما كانت تؤخذ بعين الاعتبار. فنحن نجد بدلاً عنها اسراف في الوجوه البشرية والأسطورية ربما كان أكثرها إشارة للانتباه في تكراره البالغ ما يمكن أن نسميه فكرة الشعبان الرائش (أي الذي يعلو جسده الريش). وكما يدل هذا التعبير فإن هذا الحيوان لا ينبغي له أن يكون شعباناً حقيقياً، فليس ما هو أبعد من ذلك عن أفكار هؤلاء الفنانين الأمريكيين الأوائل، فالشعبان الذي يمثلونه كان مزيجاً من عناصر خيالية، بل هو قبل كل شيء رمز لأكبر شخصية إلهية لدى المايا هي الإله كوكولكان KUKULKAN الذي اطلق عليه الأزتلك اسم: كيتزالكواتل QUETZALCOATL، أي كيتزال - الشعبان، ذلك لأن كيتزال كان اسماً لواحد من أنواع الطيور. ومن أجل هذه الشخصية الإلهية الكبرى كرست مدينة شيشين إيتزا الشهيرة حيث يقوم معهد كارنيجي بتنقيياته في هذا المكان.

والمعنى الديني لهذه الذات الإلهية المتفردة المنفردة ضاع بالنسبة لنا ولا نعرف عنه شيئاً. فقد كان لها جسد شعبان، وريش طائر الكيتزال، وأسنان الجاغوار (النمر الأمريكي)، وزينات بني الإنسان كغطاء الرأس وغطاء الأذنين أو الأنف، وكان منحراه يفتحان فوق رأس آدمي.

ومن الصعب أن يكون بالإمكان إنتاج مثل هذه المجموعة من العناصر أكثر من مرة واحدة. فنحن إذن نحولون بأن تؤكد أنه في كل مكان نواجه فيه حيواناً من هذا النوع سواء في فن أية قبيلة هندية أو في أساطيرها فلا بد أن وجوده عندها إنما هو ناجم عن تأثير المايا في حضارتها. والواقع أننا نجد هذا الشعبان الرائش في كل أمريكا الوسطى والمكسيك وحتى فيما وراء نهر ريوغراتند، - رغم أننا نجده وقد اتخذ شكلاً أكثر لطافة وتعديلاً كلما اتجهنا نحو الشمال. وانتشار هذه الهيئة في الفن والميثولوجيا والدين هو إذن واحدة من نقاط ارتكازنا الأكثر قيمة من

أجل ان نحدد إلى أي مدى أثرت حضارة المايا في بقية أنحاء أمريكا الشمالية الوطنية .

وتطور الشعبان الراهث على مر الزمن هو مثال جيد على الأخطار التي تتعرض لها غريزة التزيين المتروكة وشأنها بحيث تؤدي في النهاية إلى نموذج أسلوبى خاص بكل مكان . فالصورة التي نقدمها في الصفحة التالية .

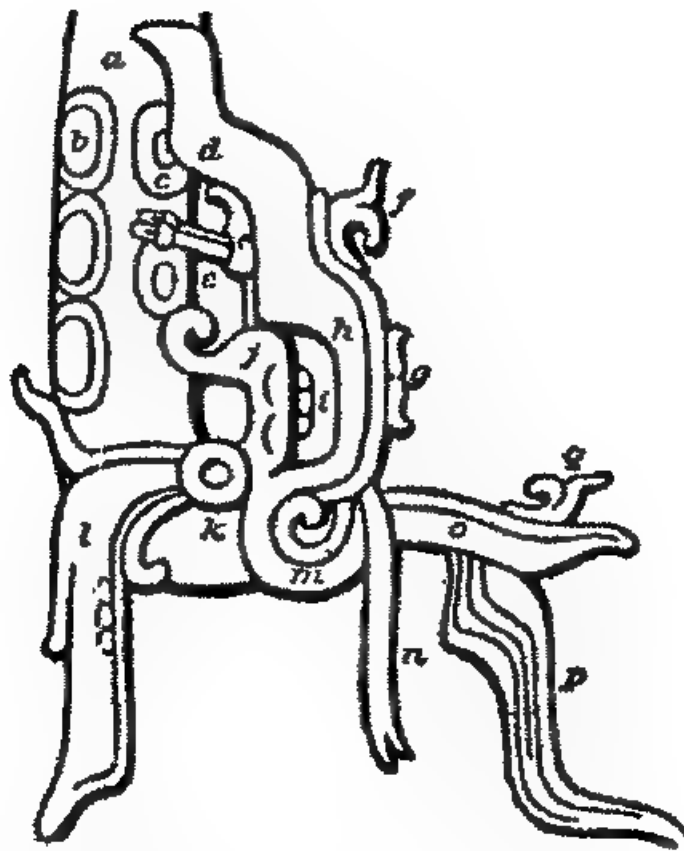
لا تبسّد في أعين غير المطلعين على الأسرار إلا تشبيكاً ولفاً وكلايب خالية من المعنى ، مع أنها شعباننا الذي تغير شكله حتى أصبح غريباً علينا . وعلى الرغم من ان فكرة الشعبان انتقلت من المايا إلى بقية أمريكا الشمالية فإن النموذج الخاص منه الذي أوجده المايا لم يتشر على الأسلوب الذي أوجدوه . فالأسلوب والرمز يلعبان دوراً كبيراً لدى الكثير من القبائل التي تعيش إلى الشمال من ريوغراندي ولكن لهما صفة مختلفة .

ففي كل مكان سنجد أثراً للشعبان الراهث ذي الأجنحة المبسطة الذي يرمز في معنى ما إلى فتح القارة الثقافي على يد المايا . ولكن ماذا يعني هذا الشعبان في نظر الهنود الذين يسيطرون سيطرة كاملة على فنهم وعلى حياتهم الدينية؟ . . إن معلوماتنا ، مع الأسف ، في هذه النقطة الحيوية مبهمة مبتورة . ومع ذلك فإن ثمة أقاصيص تركها لنا المؤرخون الإسبان والمبشرون تحمل في طياتها الكثير من المعلومات الغامضة المتنوعة بمقدار غموض وتنوع العناصر التي تتركب منها . فهو اله ، إله كبير ترتبط به كل مصالحي بني الانسان . وهو يرتبط بالذرة والماء والمطر المخصب والهواء والسماء والجهات الأصلية الأربع والغرب ونجمة الصباح . ومع ذلك فتحت مظهره النصف إنساني كان مؤسس ومنظم حضارة ، وهذا أفضل ما يمكننا أن نعبر عنه . وبحسب ما ترويه بعض

الأساطير فانه هو الذي أسس شيشين إيتزا . ويروى أيضاً أنه ظهر بدون سابق إنذار ومن مكان لا يعرفه أحد ثم مضى على حين غرة إلى جهة غامضة لا يعرفها أحد . والنقطة الرئيسية في الأسطورة هي عودته التي أعلن عن أنها ستحدث في زمن ما من مستقبل الأيام ، وبناء على هذا الاعتقاد افترض الإسبانىون الذين فتحوا البلاد أن المايا وكذلك الأزتك الذين يسكنون وادي مكسيكو كانوا يتوقعون وصول البيض الوشييك .

وعما لا شك فيه أن الشعبان الرائش كان يرمز إلى الضياء والحياة والحركة . وربما كان يرمز أيضاً إلى الماء في مظاهره المختلفة التي اجتمعت فيه بطريقة أصولية . ويذهب اختصاصي بقضايا المايا ذو شهرة واسعة ، معتمداً على الاسم الذي تحمله هذه الذات الإلهية لدى قبائل المايا وهو الشعبان الرائش الذي يمضي في الماء ، يذهب هذا الباحث الاختصاصي إلى أن الكوكولكان (أي الشعبان) إنما يجسد تموج الماء تحت عمل الريح ، ذلك التموج الذي تثيره في أنفاسنا رياش الشعبان وحركاته على السواء . وبحسب ما يقوله هذا العالم فإن الشعبان الرائش ربما كان يمثل الحركة والريح الأصلية التي هي مبعثها في آن واحد ، أي أنه يمثل النفس والحياة . وتحت مظهر الشعبان والماء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإله المطر ، بينما يسيطر تحت مظهر الطائر على الجهات الأربع وعلى السماء .

هذه الذات الإلهية الخارقة ذات الطبيعة غير المحددة تثير مشكلة مشوقة . ففي المكسيك نفسها وبين الكثير من القبائل الأكثر تطوراً في شمالي المكسيك توزعت وظائف وخصائص هذا الإله التي وحدها المايا فيه بين عدد كبير من الآلهة . فهل ينبغي علينا أن نصدق أن هذا الإله الشعبان الكبير عندما انتشر نحو الشمال أخضع وحدته كما أضاعت وحدتها كل العناصر الثقافية الأخرى للمايا التي امتدت هي الأخرى إلى



الشمال مع امتداد عبادة هذا الشعبان، ثم أن من الأصح أن هؤلاء المايا أنفسهم هم الذين أقاموا هذا الإله وركبوه صنعياً بأن مزجوا كثيراً من الآلهة وجعلوها لهم إلهاً واحداً؟. فالكثير مما يعزى إلى الشعبان الرائش يمكن أن يكون قد عُزِي إليه في أوقات لاحقة ولكننا من حيث الجوهر نشعر بأن الحق معنا في أن نعتقد بأن هذه هي الفرضية الأولى التي يمكن أن تكون أكثر صواباً مما عداها.

اثنتان من عناصر هذه الذات الإلهية تكادان توجدان في كل أميركا الشمالية: ربطه المبدئي بالماء، والرأس الانساني ذو الفكين المفتوحين. وفي رأيي أن هذا الرأس إنما هو التمثيل الرمزي للنزاع الذي يخوضه الشعبان الرائش دائماً ضد ذات إلهية أخرى. وقد أمدنا قدماء الأزتك بالتعبير التقليدي لهذا النزاع. ففي رأيهم أن الشعبان الرائش الذي يحمل اسم كيتز الكواتل يقف دائماً في مواجهة عدوه اللدود تيزكاتلييوكا (المرأة المدخنة). وفي نهاية المطاف يتصرف تيزكاتلييوكا ويطرده

كيتزالكواتل . وهذا النص من الأسطورة المنتشر إلى أبعد الحدود إنها هو إشارة إلى حدث تاريخي هو فتح وادي مكسيكو على يد غزاة برايرة هم أجداد الأزتك . فكيتزالكواتل يمثل الحضارة الكبيرة التي وجدها البرابرة في الوادي بينما يمثل تيزكاتليوكا البرابرة أنفسهم .

ومن الغريب أن أسطورة شهيرة في كل منطقة البحيرات الكبرى من الولايات المتحدة الأمريكية تقدم لنا موضوعاً مطابقاً تماماً لهذا الانتصار على الشعبان الراض . فهنا يقوم قرين تيزكاتليوكا ، وهو الطائر الرعد ، فينتصر على روح المياه الذي هو قرين الشعبان الراض كيتزالكواتل . فهنا يمثل طائر الرعد مرة أخرى غزوة بربرية قادمة من الشمال بينما يمثل روح المياه الحضارة الأكثر تقدماً . ومع ذلك ففي الشمال من ريوجراند تتناوب هاتان الشخصيتان الإلهيتان النصر فيما بينهما بصورة عامة على الدوام .

وتم نص آخر لهذه القصة المشيرة للفضول يكاد ينتشر في كل أمريكا الوطنية . وبموجب هذا النص يتنصر إله المياه الذي هو رمز للشر على عدوه المتمثل بنجمة الصباح ويحمل رأسه غنيمة له . إلا أن هذا النصر يكون مؤقتاً لأن إله المياه يهزم في النهاية على يد أبناء أخ البطل المهزوم .

ويبدو من المؤكد أننا هنا أمام أساطير متعددة تتعلق بكيتزالكواتل وتيزكاتليوكا . ومع ذلك فإن واحداً من العناصر الجوهرية في نص المايا يبدو أنه اختفى عندما انتشر الإله ورمزه نحو الشمال ، وهذا العنصر هو مظهره كطائر . على أن إحدى القبائل البدائية التي تقطن إلى الشمال الغربي من ميتشيفان ، وهي منطقة معروفة من الأمريكيين جميعهم بأنها كانت مسرحاً لمآثر الهياواتا ، تقدم لنا صدى ضعيفاً لهذا المظهر الأول المعزول إلى هذه الذات الإلهية . فهنا يعتقدون بشعبان مائي تحميه الطيور

خدمة البشرية بحيث تصنع منها أدوية شافية أو مميتة ، فهو إذن مزدوج الوظيفة هو الآخر ، وفي هذه المنطقة ذاتها نلاحظ أن الأرواح المرتبطة بالزراعة يجب أن تكون محمية دائماً ضد مناورات الأرواح الشريرة كما هو حال إله الذرة تماماً لدى المايا .

وربما كان ظهور هذه الثنائية أوضح ما يكون لدى القبائل التي تعيش إلى الشرق من السوينياغو حيث يسود هنا اعتقاد عام بروحين كبيرين أحدهما صالح والآخر شرير ، وهو اعتقاد جعل المشرين الفرنسيين الأوائل يذهبون خطأ إلى أن هنود هذه البلاد يؤمنون بالله وبالشيطان ، مع العلم بأن هذين الإلهين كانا كل ما أمكن لهذه القبائل البدائية نسبياً أن تحفظه من ذلك التيار الديني القادم من أمريكا الوسطى .

ولقد كان من الطبيعي أن يكون عدد الاحتفالات كبيراً لدى المايا كما هو منتظر من حضارة كانت المعابد تلعب فيها دوراً كبيراً وحيث كانت الآلهة محددة تمام التحديد ، فقد كان يوجد - إذا اختصرنا الموضوع - أربعة أنواع من الاحتفالات : الاحتفالات على شرف كبار الآلهة ، والاحتفالات التي كانت تقام في مطلع وفي نهاية العام ، وتلك التي يقوم بها مختلف أصحاب الحرف والطوائف ، وأخيراً تلك التي لا تحدث إلا في بعض المناسبات الخاصة . وكانت كلها منظمة أحسن تنظيم وفقاً لتقويم معقد كل التعقيد . أما في بقية أمريكا الشمالية فكان أكثر هذه الطقوس أهمية هو احتفالات مطلع العام وتلك التي تقام على شرف آلهة الجهات الأصلية الأربع .

وكانت الصفات المميزة لأعياد مطلع العام هي تنظيف المنازل وإصلاح الأدوات المنزلية وتجديدها وتطهير باحات المعابد بالبخور ، وبخاصة الاحتفال بالنار الجديدة . وكثير من هذه الخصوصيات تشكل

العناصر الطقسية الأساسية لدى الكثير من القبائل التي تعيش على
سواحل خليج المكسيك وإلى الشمال منه .

ولا يزال احتفال الجهات الأصلية الأربع واسع الانتشار حتى
اليوم . فهو يشكل الوحدة الاحتفالية المميزة في كل أمريكا الشمالية لأنه
يستند على ما يمكن اعتباره الأسطورة الكونية الأساسية للعالم الجديد .
فبموجب نظرة المايا للكون تشكل الأرض مكعباً تنبثق من مركزه شجرة
هي شجرة الحياة . ويمسك بالأرض أربعة من الآلهة هم الجهات
الأصلية الأربع التي يرتبط كل منها بلون خاص . وليس في استطاعتنا
أن نقدر حق التقدير معنى هذه الذوات الإلهية الأربع التي لولاها لما
امكن المحافظة على روح الاحتفال عند الهنود .

ومعرفتنا عن التنظيم الاجتماعي لدى المايا أقل من معرفتنا عن
بقية العناصر في ثقافتهم . ولكن يبدو أنهم لم يكونوا يملكون ما يعادل
التنظيم الاجتماعي الواضح الذي كان سائداً لدى الأزتيك وأقاربهم أو
لدى الحضارات الكبرى التي كانت تزدهر بين المايا ووادي مكسيكو .
ولقد بقيت عمالك المدن هي الوحدة السياسية النموذجية . وعلى الرغم
من أن الأرض التي كانت تتبع كلاً من عمالك المدن هذه كانت تتسع
وتنمو أحياناً نمواً كبيراً بحيث لا بد من أن تظهر فيها رقابة حسنة
التنظيم فإن مركزية السلطة لم تكن تصل إلى مستوى أن تكون سلطة
ملوك حقيقيين أو إلى مستوى تنظيم طبقي بالمعنى الحقيقي لهذا
التعبير . أو على الأقل هذا ما كان من أمريوكاتان ، وربما كان الأمر
يختلف في القسم الجنوبي من أمريكا الوسطى .

وكان المايا يحافظون محافظة شديدة على نظام عائلي ذي سلالة
أبوية ، وتشير كل الدلائل على وجود تكتلات ثنائية شبيهة بها موجودة
لدى قبائل الولايات المتحدة الأمريكية .

وكسبا هو منتظر كانت طبقة رجال الدين وحدها الطبقة المتكثلة . وكانت مهمة الكاهن الأكبر وراثية تماماً كمهمة رئيس القبيلة . والدور الذي كان يلعبه هذا الحبر الأعظم لحظة وصول الاسبانين إلى البلاد كان دوراً هاماً وإن كانت الآثار والكتابات الوطنية التي وصلت إلينا تدل على أنه كان يتمتع في الماضي بدور أكبر من ذلك بكثير . ولا شك بأن لنا كل الحق في أن نعتقد بأن هذه المكانة التي كان يحتلها الحبر الأعظم كانت تتعارض بوضوح مع المكانة التي كانت تحتلها السلطة المدنية ، وكانت تلك هي الحالة لدى الأرتك ولدى أقاربهم من قبائل الناهواتي الذين يعيشون في المكسيك الأصلية . فإذا كان تأكيدنا هذا سليماً فإننا نكون قد وجدنا عند المايا النموذج الأصلي لواحد من الأشكال الأساسية للحكم كان يسود على ثلاثة أرباع الأراضي التي تمتد نحو الشمال حتى كندا . وتبدو هذه الثنائية في السلطة بأوضح معانيها لدى الإيروكوا والسيو وبعض قبائل الألغونكان حيث نجد زعيمين وراثيين ترتبط وظائف أحدهما بالحرب بينما ترتبط وظائف الثاني بالسلام .

ونحن لا نستطيع - كما لاحظنا - أن نتكلم عن ملوك عند المايا ولا عن تسلسل اجتماعي حقيقي . على أننا لا يجب مع ذلك أن نقلل من تقديرنا للفصل الواضح الذي كانوا يقيمونه بين الأغنياء والفقراء ، بين الزعماء والكهنة من جهة وبين بقية الشعب من جهة أخرى . وكان الكهنة يضمون في صفوفهم كل مثقفي الأمة . وفي حضارة يسيطر عليها الدين هذه السيطرة الشديدة كحضارة المايا لا يمكن أن يظهر مفكرون علمانيون أو فنانون علمانيون ، ومن هنا كان الكاهن والمفكر لفظين مترادفين ، فالكهنة إذن هم من يعود إليهم فخر الكشفين العظيمين اللذين يمكن أن يفخر بهما أي شعب سواء كان متحضراً أو غير

متحضر، هذان الكشفان هما اختراع الكتابة الهير وغليفية وخلق تقويم صعب يعتمد على حسابات فلكية شديدة التعقيد .

أما الكتابة الهير وغليفية لدى المايا فلا تذكرنا بأي نظام للكتابة معروف لدينا . وكما كان الأمر في مصر القديمة فإن هذه الكتابة كانت أساساً كتابة تصويرية ، ولا بد أنها كانت تهدف - كما يبدو لنا حتى الآن - إلى تصوير الشيء المراد التعبير عنه ، ثم ما لبثت مع الزمن أن صارت ترسم من الشيء بعض أجزائه ، ثم بعد ذلكم تطورت هذه الرموز حتى انقلبت إلى مجموعة من الاشارات (أو الهير وغليفيات) التي لم يعد بالإمكان مطابقتها مع الأشياء التي تعبر عنها دون مساعدة من دليل .

وقد أدى هذا التطور التدريجي في الاشارات الهير وغليفية في بعض الحالات إلى حذف كل العناصر التي لم تكن ضرورية ضرورة لازمة فيها . والضروري منها يمكن أن يختصر مثلاً إلى حزمتين صغيرتين متصلتين أو بكل بساطة إلى علامة نجمية . على أن ثمة صعوبة أخرى في القراءة تكمن في أن المايا لم يجانبوا أبداً الناحية الفنية الحالية في كتابتهم وإنما شغلوا أنفسهم كثيراً كي يتوصلوا إلى رسم متوازن ومتناغم دون أن يأخذوا بعين الاعتبار التعديلات والاعوجاجات التي تلحق على هذا الشكل بالكتابة الهير وغليفية . وكانت الفجوة التي تفصل أحياناً بين الكلمة وإشارتها كبيرة لدرجة أن بعض المؤلفين تساءلوا ما إذا كانت كل الإشارات الهير وغليفية ذات أصل تصويري . ومع ذلك فإنه على الرغم من هذا الميل إلى الاختصار والتمنمة فقد احتفظت بعض الاشارات دائماً بأصولها التصويرية .

والى جانب هذا الميل إلى الابتعاد عن تصوير الأشياء نجد ميلاً واضحاً لاستعمال بعض الرموز الهير وغليفية للدلالة على الأصوات .

فالإشارة التي تمثل الشمس مثلاً لفظها «كين KIN» . ولكن هذا الحرف الصوتي يدخل في تركيب كثير من كلمات المايا دون أن يكون له معنى الشمس لأنه انقلب إلى مجرد مقطع صوتي . وهناك مجموعة من هذه المقاطع هي التي يكمن في وضوحها أملنا في أن نتوصل يوماً لفك أسرار كتابة المايا المهير وغليفية . ومع ذلك فإن هذه العناصر الصوتية تبدو مرتبطة بمقاطع لا بأصوات منفصلة مما يساهم في جعلها أشد استعصاء على الفهم .

وتتمثل هذه الرموز المهير وغليفية في شكلين يختلف أحدهما عن الآخر بعض الاختلاف . الشكل الأول هو ما كتب على الآثار والشكل الثاني هو المخطوطات التي تمت كتابتها قبل عصر كريستوف كولومبوس بقليل ، ولنسم هذا العصر بالعصر الكولومبي . كما يمكننا أن نصنف هذه الكتابات في نوعين ، أولها كان يستخدم في حساب الزمن ، والثاني ربما كان له بالاشتراك مع الأول صفة تفسيرية .

على أن معظم الرموز المهير وغليفية لها صفة الحسابات الزمنية وإن كان الكثير منها أيضاً يدل على أحداث تاريخية . وهي لا تدل فقط على على التاريخ الذي أنشئ فيه هذا المبنى أو ذاك وإنما يبدو أنها تروي للخلف أيضاً ما جرى من أحداث معاصرة . وقد ادعى بعض قدماء المؤرخين الإسبان أن بعض الكتب الأكثر قدماً إنما استخدمت لأغراض كثيرة من بينها مثلاً تحديد أيام الفأل وأيام النحس ، أو تجنب الشرور ، أو التنبؤ بالمستقبل ، وثمة الكثير من الدلائل التي تؤيد هذا الادعاء . ويحق لنا أن نعتقد بأننا لو دفعنا ببحوثنا إلى الأمام فإننا سنتوصل إلى اكتشاف أن هذه الرموز المهير وغليفية إنما تعني أشياء مختلفة كل الاختلاف ، من أشخاص ومدن وتفسيرات سياسية وأعياد وأصحيات وقبائل وولادة وموت وانتصار ومواضيع أخرى كثيرة أيضاً .



(كتابة هير وغليفية من الملبا)

أما في الوقت الحاضر فإننا لم نتوصل إلى شيء من ذلك .
ومعلوماتنا الحالية لا تعدو مع الأسف عدداً صغيراً من هذه الرموز .
فنحن لا نعرف حتى الآن إلا الإشارات التي تدل على الأيام والأشهر
وبعض الأزمان ، وكذلك الأعداد من الصفر إلى العدد ١٩ ، والجهات
الأصلية الأربع مع الألوان الأربعة التي ترتبط بها ، وبعض الآلهة ،
والشمس والقمر والزهرة والمريخ وعطارد وبعض النجوم الأخرى ، كما
أن بعض الرموز المير وغليفية أخيراً تنطبق وتدل على أشياء مادية .

وإنه لمن المفيد أن نشير إلى موضوع الأعداد من الصفر إلى
العدد التاسع عشر ، ذلك لأنها تشكل من صور عشرين إلهاً ، وهذا
الترقيم لا يستعمل إلا في الحالات المعقدة ، ذلك لأنه يوجد إلى جانب
هذا الترقيم ترقيم آخر أبسط منه حيث يمثل العدد واحد بنقطة والعدد
اثنان بنقطتين ، والعدد خمسة بخط صغير ، والعدد ستة بخط صغير
ونقطة ، والعدد ١٥ بثلاثة خطوط صغيرة . . وهكذا . أما الصفر فتمثله
صورة قوقعة . وهكذا نستطيع أن نفهم إلى أي مدى كان المايا
يستعملون الأعداد ، مع العلم بأنهم كانوا يملكون نظاماً من ثنائي
وحدات كانت كل واحدة منها أحد أضعاف العدد عشرين . فإذا بدأنا
من الواحد كان لدينا مجموعة متزايدة بحيث نصل إلى 1×20 و
 20×20 ، و 400×20 ، و 8000×20 وهكذا حتى نصل إلى رقم
بالغ الضخامة هو العدد 128000000 .

والرموز التي نعرفها خيراً من غيرها من هذه المير وغليفية هي
تلك التي تدل على الزمن والتقويم . والكشوف التي تقودنا إليها هذه
الرموز تدل على أن المايا بلغوا شأواً لا يصدق في معلوماتهم الفلكية .
ولا ينبغي علينا بطبيعة الحال أن يسهر عن بالنّا أن الكتابة المير وغليفية
كانت كتابة مقدسة وإنها كانت معروفة حصراً من طبقة وراثية من

الكهان الذين يعدون جيلاً بعد جيل لكي يكرسوا أنفسهم لهذا العلم .
أما العامة فلم يكن يهمهم ذلك في شيء .

من هذه الجهود التي بذلها المايا نجم امران أساسيان في تقويم الزمن ، أولهما أنهم كانوا يعرفون السنة القمرية ذات الاثني عشر شهراً وذات الثلاثين يوماً في كل شهر . والأمراً الثاني أنهم خلقوا دورة اصطلاحية أخرى تتألف السنة فيها من ثلاثة عشر شهراً والشهر من عشرين يوماً ، وهذه السنة الأخيرة هي التي تشكل العنصر الأساسي في تقويم المايا ، كما أنها ظهرت بين كل الشعوب التي تأثرت تأثراً مباشراً بهذه الحضارة .

ولم يكن المايا يقتصرون على تحديد السنة القمرية تحديداً دقيقاً وإنما كانوا يعرفون كيف يطابقونها مع السنة الشمسية ايضاً بإضافة خمسة أيام في نهاية كل عام . كما أنهم كانوا يأخذون السنوات الكبيسة بعين الاعتبار ولكن دون أن يضيفوا - في أغلب الظن - يوماً إلى مثل هذه السنوات . يضاف إلى ذلك أنهم قلدوا عدد أيام الشهر من ثلاثين إلى عشرين يوماً بسبب نظامهم الذي كان يعتمد - كما رأينا في الترقيم - على العشرين ومضاعفاتها فرفعوا بذلك عدد أشهر السنة من اثني عشر إلى ثمانية عشر شهراً .

أما الآن فلندخل في تلك المتاهة المدهشة الغريبة التي وصلت إلينا من علماء الفلك من المايا . فقد تضافرت ثلاثة شروط ضرورية لكي يظهر عندهم هذا التقويم التالي : معرفة الدورات الفلكية ، وخلق نظام كامل للعد ، واختراع السنة الطقسية ذات المائتين وستين يوماً . وقد أنشئت هذه الدورة الاصطلاحية ذات المائتين وستين يوماً بدافع من عاملين : مجموعة من الأعداد (من ١ إلى ١٣) ، ومجموعة من عشرين اسماً ربسما كانت في الأصل تدل على الأيام . وهاتان

المجموعتان - كما يقول مؤلف خبير في هذه المادة هو الدكتور سبيندن وتندججان مثل دولابين مستنيتين في أحدهما ثلاثة عشر سناً وفي الآخر عشرون . فدولاب الأعداد الصغير يقوم بعشرين دورة بينما دولاب الأيام الأكبر يقوم بثلاث عشرة حيث ينطبق الدولابان بعد ذلك على بعضهما بعد أن كانا متطابقين في بدء العملية أيضاً . وهكذا فإن اليوم الذي يحمل الرقم نفسه والاسم نفسه لا يعود إلا مرة واحدة كل مائتين وستين يوماً 20×13 .

والى جانب هذه السنة المصطنعة يقدم لنا تقويم المايا ثلاث خصائص أخرى يطلق عليها اسماء : دورة التقويم ، والتقويم الكبير ، وتقويم الزهرة .

والدخول في تفاصيل هذه التقاويم أمر شديد الصعوبة والتعقيد ، وإن كانت دراستها قد ثمت على يد أخصائيين حتى أصبحت مفهومة كل الفهم . ويقودنا هذا إلى معرفة أن المايا ، أو المثقفين منهم من رجال الدين ، كانوا يتمتعون بحصافة ودقة متناهية في حساباتهم وإن كانوا فيها شديدي التعقيد ولم يتمكنوا من الوصول إلى تقويم مبسط . وقد اعتقدوا في تقاويمهم أن ثمة يوماً عدداً لخلق العالم وأن هذا العالم سينتهي بعد أربعة وثلاثين ألف عام دون أي شك أو تردد في تحديد هذا التاريخ .

والأرقام التي نجدها في حساباتهم ، حسابات السنين والأيام ، أمر يشير الدوار . ويزداد هذا الدوار فينا أيضاً عندما نتذكر أن هذا الشعب هو الذي اخترع الصفر وأدخله في حساباته قبل ما يقارب الثمانية قرون من معرفته في العالم القديم .

فمن هو إذن هذا الشعب الخارق وماذا نعرف عن أصل هذه الحضارة المدهشة ؟ . يبدو أن هذه الحضارة انبثقت فجأة واختفت أيضاً

بطريقة شديدة الغموض . وقد وضعت كثير من النظريات حول أسباب ظهورها وانحطاطها ولكن معارفنا عنها لا تتعدى ما يلي : في نحو من عالم ١٠٠ قبل الميلاد كان النظام الهير وغليفي فيها قد بلغ أقصى تطوره وإن أصبح قديماً بعض الشيء بالنسبة للأسلوب الذي ساد في القرن الذي يليه . فإين ومتى ولد هذا النظام ؟ ، هذا ما نجهله كل الجهل . والكتابة الهير وغليفية الأكثر قدماً إنما وجدت على تمثال صغير ، بينما كان تاريخ الكتابة التي تبعت ذلك متأخراً بحوالي مائتي عام . ثم ، ومن دون أن نجتاز مرحلة وسطى ، وجدنا التلال « MOUNDS » الاصطناعية الضخمة التي تضم معابد شديدة التعقيد ومساحات عامة ومسلات وهياكل . ولم تكشف لنا التنقيبات في أي مكان عن وجود ثقافة أقدم يمكن أن تكون أصلاً لهذه الحضارة الرفيعة . حقاً تم اكتشاف اشارات تدل على ثقافة بدائية على هامش هذه الحضارة الرفيعة ولكنها لم تكن أبداً تحت أنقاض حضارة المايا . وعلى ذلك فليس لنا أن نعتقد في الوقت الحاضر أن أشكالاً أكثر بدائية كانت سابقة للثقافات المتطورة التي ظهرت في يوكاتان وفي أمريكا الوسطى .

وبغياب البراهين التي تثبت حدوث تطور تدريجي في حضارة المايا في أمريكا الوسطى ويوكاتان ، واعتماداً - من جهة أخرى - على بعض أوجه التشابه التي تقدمها خرائب المايا وثقافتهم مع بعض حضارات آسيا افترض بعض العلماء أن حضارة المايا إنما تمتد بأصولها إلى العالم القديم . ولكن هذه النظرية تصطدم بصعوبات كبيرة لا تقل عن تلك التي تحاول القول بالأصل الأمريكي لهذه الحضارة ، والصعوبة الأثروغورية هي مسألة التوقيت ، ذلك لأن الحضارة التي يفترض أن المايا استعاروا منها عناصر حضارتهم لم تكن موجودة قبل العام ٦٠٠ ب . م . على أبكر تقدير ، بينما تعود حضارة المايا كما نبرهن على ذلك معلوماتنا

الحالية إلى حوالي العام ١٠٠ ق.م على الأقل . فمن أجل أن نتبنى مقولة أن حضارة المايا تعود بأصولها إلى العالم القديم ينبغي علينا أولاً أن نتغلب على هذه الصعوبة سواء بأن نثبت أن فهمنا الحالي لنظام الترقيم عند المايا هو فهم خاطئ ، أو أن نثبت أن الحضارة الأسبوية التي اثبتت عنها حضارة المايا كانت أقدم بكثير مما كان يعتقد . أما في الوقت الحاضر فإن المشكلة تبقى بدون حل* .

وتاريخ حضارة المايا تسيطر عليه ظاهرة أساسية هي الفترة السوجيزة التي تمت بها سكنى كل واحدة من مدنها . كما ان ثمة ظاهرة أخرى هي أن مدناً بل ومناطق بكاملها تم هجرها دون أن يتوصل أحد لاكتشاف سبب ظاهر لما حدث . كما أن أحداً لم يستطع أن يفسر هذه المهجرات الدائمة : ترك هذه المدينة فجأة وبناء غيرها في وقت قصير . وقد لجأ الباحثون من أجل تفسير ذلك لكل أنواع الفرضيات بدءاً من الملاريا حتى التغيرات المفاجئة للمناخ أو ضغط قبائل من الغزاة أو غير ذلك من أنواع المصائب . ولكن أية واحدة من هذه الفرضيات لم تكن وافية بالغرض وبقي اللغز دائماً مستعصياً على التفسير .

وقد قسم العلماء تاريخ حضارة المايا إلى عدد من الأحقاب واضحة الفصل بحيث يتميز كل واحد منها بأسلوبه الفني الواضح ، وتمتد الحقبة الكبيرة الأولى ما بين عام ١٧٦ م حتى عام ٣٧٣ م . والمواقع التي ترتبط بهذه الحقبة تقع كلها إلى الجنوب من يوكاتان . وكان النحت في هذه الحقبة لا يزال قاسياً حاد الزوايا ، والتصوير الجانبي

* - لم يذكر المؤلف اسم الحضارة الأسبوية التي ظهرت سنة ٦٠٠ للميلاد والتي يعتقد بعض الباحثين أنها أصل حضارة المايا وحروفها المير وغليفية .

أفضل من التصوير الأمامي في الأشكال الانسانية، وكانت كل تقاليد
المايا الفنية قد وجدت في هذه الحقبة كما بدأ الشعبان الرانش يلمس
وظيفته، أما الحقبة التالية وهي الحقبة المتوسطة فتتمد بين عامي ٣٧٣ -
٤٧٢ م وتضم بعضاً من أجمل التحف الفنية . وقد تميزت في ميدان
النحت ببقاء الأسلوب وبساطة تمثيل المواضيع . ولم يكن الأسلوب
المنموج في الخطوط والزخارف الذي يميز الأحقاب اللاحقة قد ظهر
بعد . ثم تأتي الحقبة العظمى التي تمتد ما بين عامي ٤٧٢ - ٦٢٠ م
فتستمر مائة وخمسين عاماً حيث يتقدم فن البناء بسرعة كبيرة فتصبح
الغرف أكثر اتساعاً والجدران أكثر رقة والأشكال أقل غلظة وحسابات
التدوين تعالج مواضيع فلكية تتزايد تعقيداتها يوماً بعد يوم .

فبين عامي ٤٧٢ - ٦٢٠ م ازدهر أعظم عصر في حضارة المايا،
ثم ما لبثت أن انتهت بشكل فجائي . ولا بد أن مصيبة ما قد حلت بهذه
المدن التي بلغت غاية الازدهار . وقد تحدث بعض العلماء عن حرب
أهلية، وتحدث آخرون عن وباء، وآخرون عن انحطاط لحق
بالمجتمع . ولكننا في الواقع لا نعرف شيئاً واضحاً ومؤكداً لأن
تلميحات المؤرخين الذين عالجوا هذه الحقبة القديمة أتت بالغة
الإيجاز.

في حوالي عام ٦٠٠ للميلاد كانت كل مدن المايا قد هجرت
ونجم عن ذلك هجرة نحو الشمال . وامتدت فترة الانتقال هذه ما بين
عامي ٦٢٠ - ٩٨٠ م . وكان فن البناء في هذه الفترة لا يزال متماسكاً
ولكن النحت التزييني كان قد اختفى تماماً من الوجود .

وعسفت الفترة ما بين عامي ٩٨٠ - ١٢٠٠ م حركة يمكن أن
نطلق عليها اسم عصر النهضة . ومع ذلك بقيت أساليب البناء والتزيين
أكثر شكلية مما كانت عليه في الأحقاب السابقة، بينما ظهرت أفكار

جديدة منها الرسم على الخشب على سبيل المثال ، ومساحات مستطيلة الشكل صنعت فيها أشكال نحت كل منها على حدة ليتشكل منها فسيفساء ، كما ظهرت وجوه هندسية الشكل على الطريقة الاغريقية ، وأعمدة على شكل حُزَم ومشبكات على أشكال منحرفة .

أما الحقبة التالية فكانت عصر الانحطاط . ودامت ما بين عامي ١٢٠٠ - ١٤٥٠ م ، وانتهت بتدمير المدينة التي كانت قد لعبت دوراً من الدرجة الأولى في الحقبة السابقة . والصفة المميزة لهذه الحقبة الأخيرة هي النفوذ الذي مارسه على حضارة المايا كما يبدو حضارة شالية لم تكن في جوهرها إلا إعادة صياغة للعناصر الثقافية التي كان المايا قد نشروها هم أنفسهم قبل العديد من القرون . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول بأن حضارة المايا تبدلت بتأثير ثقافة أخرى فرضت نفسها عليها وكانت قد نشأت نتيجة للتعاون بين جدود المايا وبين الشعوب الممجية التي كانت تسكن في الشمال .

تلك كانت حضارة المايا . وكان بهاؤها قد انطفأ منذ أكثر من نصف قرن عندما بدأ الإسبانيون بعملهم التخريبي المشؤوم . ولم يكونوا يقيمون أي اعتبار لكسوف هذه الحضارة الوطنية التي وجدوها في العالم الجديد . ولا يمكن أن يعزى هذا التفكير الكلي إلى ضعف سياسي داخلي كما كانت الحالة بالنسبة لبلاد اليونان القديمة ، وإنما علينا من أجل تفسيره أن نتوجه بأنظارنا إلى الشمال من أمريكا الوسطى ويوكاتان ، إلى مقاطعات كانت تجوب في أرجائها قبائل ممجية . وبضربة من سوء الحظ مر الفاتح الإسباني الكبير فرنان كورتيز على بعد ثلاثة فراسخ من كوبان COPAN دون أن يخطر في باله ازدهار حضارة رائعة في هذا المكان هي حضارة المايا ، وإنما اكتسب شهرته من أنه فتح مدينة كانت في الواقع قد أقيمت فوق انقاض هذه الحضارة الرفيعة .



الفصل الثالث

المكسيكيون القدماء

بعد أن قام كورتيز بالاستيلاء على مكسيكو أرسل إلى أسبانيا أكثر الأشياء إشارة للفضول، أشياء كانت فيما مضى جزءاً من كنوز مونتيزوما السيء الحظ. وقد ذهبت أفضل هذه التحف بطبيعة الحال إلى الامبراطور شارل الخامس. ولم يكن هذا العاهل نفسه، على الرغم من صلفه وميله إلى التشاؤم والتطير، يتوقع النتائج المأساوية التي ستنتج عن لقاء هاتين السلالتين المالكيتين: هابسبورغ ومونتيزوما. فقد مارست المكسيك خلال ثلاثة قرون سحراً مشؤوماً على أحفاد الامبراطور الكبير حتى كان عام ١٨٦٦م حيث رُمي بالرصاص واحد من سلالة شارل الخامس على يد شرذمة من الجنود كان يقودها رجل من سلالة هؤلاء الهنود الذين كان كورتيز قد أعمل فيهم فيما مضى مذبحاً لا رافة فيها دون أن تطرف له عين.

ولقد أصبح غواتيموتزينو قائد الأزتك السيء الحظ الذي عُدب حتى الموت على يد رعايا شارل الخامس المخلصين، ومكسيمليان

الأشقر أخو امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف الذي أعدم بدون محاكمة رمياً بالرصاص وعيناه معصوبتان في ميدان كيريتارو بعد ذلك بثلاثة فرون، أصبح هذان الرجلان موضوعاً لمأساة ذات روعة تأخذ بمجامع القلوب. وكان هذان الحادثنان قد جذبا انتباه رجل واحد هو الشاعر الايطالي كاردوتشي الذي نظم قصيدة سماها ميرامار لخص فيها مصائر ال هابسبورغ بدءاً من ابنة فردناند وإيزابيلا المعترضة حتى مكسيمليان ومروراً بهاري أنطونانيت التي قضت نحبها تحت مقصلة الثورة الفرنسية. وقد أظهر مكسيمليان المتباهي الطموح خاضعاً لجاذبية الغابة الاستوائية حتى وقع ضحية لآلهة الأزتك القدماء وبخاصة لأكثرهم قسوة الإله الرهيب هويتزيلوبوشتلي الذي فخر بأنه وجد أخيراً في شخص حفيد شارل الخامس الأشقر نفسه الضحية القربانية التي تليق بمقامه.

فمن هو هويتزيلوبوشتلي الذي بعثته إلى الحياة قصيدة شاعر من القرون التاسع عشر؟. إذا تمكنا من النفاذ إلى جوهر هذا الإله فإننا سنفهم دفعة واحدة مرتكزات الحضارة المكسيكية القديمة.

بعد الفتح لم يكن الأزتك أنفسهم ينظرون إلى هذا الإله إلا على أنه إله مخرب، شبح مخادع، كما يشهد على ذلك الغناء التالي:

لم يكن هويتزيلوبوشتلي إلا رجلاً كالآخرين.

كان ساحراً ونذير شؤم

كان مشيراً للمنازعات والرؤى المفزعة

هو الذي خلق الحرب. يجمع المحاربين حوله ويصدر إليهم

الأوامر

ويروى أنه أطلق على شعبه

الثعبان الأزرق صانع النار والحرب

وعندما كانوا يحتفلون بعيدة

كانوا يضحون له بالأسرى

كانوا يضحون له بأسرى غُسلوا حسب الطقوس.

على أن أمره لم يكن كذلك قبل الفتح. فقد كنا نراه جالساً على عرش أزرق ذي أربع زوايا يخرج منها أربعة من الثعابين. وعلى رأسه ترتفع خوذة جميلة على شكل منقار طير. وحول عنقه عقد فيه حبات على هيئة قلب الإنسان. وإليك وصفاً له قدمه إلينا كلافيجير والمؤرخ الذي عاش في القرن الثامن عشر: «كانت جبهته زرقاء، وكان وجهه مستوراً بقناع ذهبي بينما كان قناع آخر يغطي على ما يبدو الجزء الخلفي من رأسه. وكان يمسك في يده اليمنى هراوة زرقاء على شكل دبوس، وفي اليسرى ترمساً على شكل خمس من الريشات المتصالبة، ويخرج من أعلى الترس علم مذهب يحمل أربعة سهام، ويلتف حول جسمه ثعبان ضخمة، كما أنه يتزين فضلاً عن ذلك بتماثيل صغيرة لحيوانات مصنوعة من الذهب أو من الحجارة الثمينة».

ولم يكن له بحسب الأسطورة أب، وإنما حملت به أمه بسبب الرعب. وعندما تكتل أحواله للفتك بأختهم عندما كانت حاملة به تمكنت من ولادته قبل أن يتمكنوا من تنفيذ مآرهم، وقد وُلد الإله مرتدياً عدة الحرب مثل أثينا عند اليونان، الترس في يده والحربة في اليد الأخرى، ثم ما لبث أن اتقض غاضباً على أعداء أمه فشفى منهم غليله واكتسب لقبه الذي استحقه بعمله هذا إلهاً للرعب، أو كما كان يطلق عليه في أحيان أخرى: الإله الرهيب.

وبما أنه كان إلهاً للحرب، واعتراكاً بما قدمه لهم خلال قيادته لهم في هجراتهم منذ سكناتهم السالفة في منطقة الكهوف السبعة، فقد شاد الأزتك معبداً على شرفه عندما فتحوا الموقع الذي أقاموا فيه مدينة

مكسيكو- تينوشيتلان. وقد بني هذا المعبد بالحجارة الضخمة التي تبدو فيها نقوش لشعابين مربوطة مع بعضها لتشكل طوقاً أطلق عليه بحق طوق الثعبان . وانتشرت في كل غرفة أصنام تعلوها وتعلو كل شيء في المعبد شرفات لها هيئات حلزونية. وتقابل الجهات الأربع فيه أبواب أربعة رائعة الجمال يفتح كل منها على طريق معبدة يتراوح طولها ما بين عشرة وخمسة عشر كيلومتراً. وعلى بعد ثلاثين خطوة من المكان كانت توجد حظيرة تحيط بها أشجار كبيرة تربط بينها أوتاد قد ثبتت فوقها رؤوس بشرية. وقد تمكن المؤرخ الأسباني الشهير أكوستا من رؤية هذا المنظر فنال منه الملح والرعب. ويصف لنا هذا المؤرخ المنظر فيقول: «كانت هذه الحظيرة مليئة من طرفها إلى طرفها برؤوس الأموات مما جعل منها منظراً مؤلماً ومرعباً في نفس الوقت. لقد كانت تلك الرؤوس لهم رؤوس أولئك الذين ضحى بهم. فيعد أن يموت الضحايا ويؤكل لحمتهم كان يعهد برؤوسهم إلى الكهنة الذين يربطونها بهذه الأوتاد حتى تسقط بعد ذلك فتاتاً إلى الأرض».

وكان عيد هويتزيلوبوشتي الكبير مناسبة لتسلية عامة. ففيه يضحي بعدد كبير من الأشخاص، وينتهي الكهنة للعيد بكفارات تمهيدية تدوم أربعة وعشرين يوماً. ويلتفون النساء الذين يعينون للتضحية بهم في هذا العيد بألوان الإله. وعندما يقترب موعد التضحية بهم يلبسونهم فاخر الحلي ويتم التطواف بهم من حي إلى حي ومن مدينة إلى مدينة. ويقسم العبيد المخصصون للتضحية إلى معسكرين حيث يطلب منهم أن ينخرطوا مع بعضهم في قتال تسيل فيه الدماء. وأخيراً يصل أحد المراكب التي تجوب شوارع المدينة إلى قمة المعبد الكبير منقطعة الأنفاس حيث تنقب هنا أذان الرجال ويعودون بعد ذلك حاملين في أنوعهم صورة للإله من العجيين لا تلبث أن تقسم

قطعاً وتوزع على المشتركين في العيد حيث يأكلونها في بيوتهم بكل احترام . وينتهي العيد بالفرحة الكبرى عندما تأذن ساعة تنفيذ الموت بالأسرى والعيد على أنغام موسيقية تصدرها أنواع من الأصدا ف.

ذلك هو الإله الحامي لمدينة الأزتك تينوشيتلان . ومهما كان شأن الرعب الذي عاناه الكهنة الإسبانىون أمام قسوة هذه العبادة فإنهم ما لبثوا أن أفادوا في مهمتهم التبشيرية من بعض أوجه التشابه في الطقوس كتوزيع صورة للإله من العجين ، وهو الاحتفال الذي كان يسميه الأزتك أنفسهم : «لقد تم أكل الإله» .

ولقد كان هويتزىلوبوشتلي - شأنه في ذلك شأن الأزتك - قادماً جديداً على وادي مكسيكو . وتقول الأسطورة إن أصله من مقاطعة بعيدة ربما كان من الممكن مطابقتها مع المنطقة الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية . ويروى أنه - كما كان شأن موسى - قاد عباده عبر صحارى غير مسكونة في الجنوب الغربي ، ثم قطع بهم هضاب المكسيك الشمالية الجافة القاسية أيضاً حتى وصل بهم إلى وادي أناهواك الخصيب حيث بنيت مدينة مكسيكو فيما بعد . وقد تعرض هؤلاء المسافرين مرات عديدة لأنواع من المصائب والحزائم والخيانات ولكنهم تمكنوا بفضل جهود هويتزىلوبوشتلي التي لا تعرف الكلل من الانتصار على كل ما اعترض سبيلهم من صعوبات . وقد وصلت إلينا قصة هذه الهجرة التي قاموا بها ، وهي لا تلخص لنا ماضيهم التاريخي فحسب وإنما تمدنا أيضاً بمعلومات عميقة عن نفسية الأزتك وعن تطور مثلهم العليا .

والأزتك - بحسب كل الاحتمالات - لم يتركوا موطنهم القديم قبل عام ٨٠٠ للميلاد . وكانوا يومذاك شعباً متمدناً بما فيه الكفاية لأنهم كانوا قد خضعوا لعدة تأثيرات ثقافية أتتهم كما رأينا من الجنوب حتى

وصلت إلى الولايات المتحدة . فأشعاع حضارة المايا الكبيرة الخيرة ، وكذلك إشعاعات الثقافات التي يشمل أنها وصلت من أمريكا الجنوبية ، كل ذلك وصل إليهم وجعل من هؤلاء البداية النهابين أمة حضرية منظمة .

وكان الأزتك ، بعد أن خرجوا من موطنهم نصف الأسطوري الذي يسمونه الكهوف السبعة ، آخر من دخل إلى مسرح الأحداث . وكانت قد سبقتهم إليه ست من قبائل الناهواتل الكبرى التي كانت من أقربائهم المقربين والتي كان عليهم أن يقارعوها من أجل أن يتوصلوا إلى السيادة على وادي مكسيكو . وكانت أولى القبائل التي اتجهت نحو الجنوب تلك التي يطلقون عليها اسم «زارعي الأزهار» . وتلاهم «شعب الأفواء» ، ثم «شعب الجسر» ، ثم «شعب الحمرات الملتوية» ، «شعب الداخل» وأخيراً «شعب الذرة الصفراء» . وكان الأزتك آخر من تركسوا بلادهم الغامضة الكهوف السبعة جالبين معهم إلههم هويتزيلوبوشتي . وهذا الإله كما يدعون هو الذي أمرهم بترك بلادهم واعداء إياهم بالسيطرة على كل المقاطعات التي كانت قد استقرت فيها القبائل الست التي سبقتهم من الناهواتل ، وهي بلاد غنية بالذهب والفضة والمعادن الثمينة وغيرها من المواد القيمة .

وبعد أن شجعتهم هذه الوعود بدؤوا سفرهم الشاق . وحتى في الزمن الذي حدث فيه الفتح الإسباني للبلاد كانت لا تزال كثير من الخرائب تدل ، حسب مقولاتهم ، على الأماكن التي كانوا قد توقفوا فيها ليرتاحوا من عنائهم وما كانوا يقومون به من مغامرات .

في كل مكان كانوا قد توقفوا بعض الوقت . ولم يكن يفوتهم أن يقوموا خلال ذلك بأمرين : إقامة معبد لإلههم الحامي وزراعة الذرة الصفراء . ولم تكن هذه الأخيرة تغل عليهم دائماً لأن الماء كان ينقصها ،

ووجب عليهم أن يعتمدوا في سقايتها إما على الندى أو على عواصف الأمطار العابرة . ويبدو أن الأزتاك لم يكونوا يهتمون في الواقع اهتماماً كبيراً بالزراعة ، ذلك لأنهم لم يكونوا يقومون بالحصاد إلا إذا أمرهم إلههم بذلك .

وأخيراً يلغوا المنطقة المكسيكية التي تسمى اليوم ميتشواكان . وفي هذا المكان حدث أول انفصال في قلب هذه القبيلة . فالبعض من كهنة هويتزيلوبوشتلي أحبوا المكان حباً جماً حتى طلبوا من إلههم الرهيب أن يسمح لهم بالبقاء فيه . وحقق الإله مبتغاهم . أما الآخرون فقد تابعوا رحلتهم ليجسدوا أنفسهم أمام مصاعب تختلف عن تلك التي كانوا قد واجهوها حتى الآن . فقد قامت اضطرابات داخلية فيما بينهم بتحريض من أخت الإله نفسه ، وكانت امرأة بارعة الجمال ولكنها أسلمت نفسها للسحر ، والذين كانوا قادرين على مقاومتها كانوا نادرين . وقد حزنت حزناً كبيراً عندما أحيط أخوها الإله علماً بها كانت تسببه من شرور . وكان قد أرسلها إلى عباده وهو يأمل أن تشد في عضدهم وتنفع في شجاعتهم ، فلما يش من تحقيق هذا الهدف نصبح رعاياه بأن يهجروها سراً وهذا ما فعلوه . ولقد أنشئت مدينة مالينالكو على يد أحفاد هذه المرأة ، وكان سكانها زمن الفتح لا يزالون يشتهرون ببراعتهم في فنون السحر الأسود .

ثم وصل المهاجرون إلى مكان اسمه تولا . ورغم أنهم أصبحوا قليلي العدد بسبب رحلتهم الطويلة الشاقة فإن هويتزيلوبوشتلي قرر أن يبرهن لهم مرة أخرى عن وفائه بعهوده . فأقام لهم سداً على مجرى نهر غزير كان يروي المنطقة حتى ملأت المياه كل السوادي واخترقته حتى داخل الجبال التي كانوا فيها يعيشون . وكان يرغب بعمله هذا أن يعطيهم فكرة عن الأراضي التي وعدهم بها . ولكنهم - وكما كان يجب

عليه أن يتوقع - وجدوا هذا المكان ممتعاً جداً ورائعاً جداً حتى أنهم نسوا أنه لم يكن إلا مجرد نموذج قُدم إليهم عن الأرض الموعودة، فعبروا عن رغبتهم في أن يبقوا فيه حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الادعاء بأنهم وصلوا إلى الأراضي التي خصصها القدر لهم والتي كانوا يبتغون .

وكان عقاب الإله الرهيب لا رحمة فيه . ففي إحدى الليالي سمعوا ضجة خفيفة في المعسكر، وفي الصباح وُجد كل الذين أظهروا رغبتهم في البقاء في مكان الملذات هذا أمواتاً وصدورهم مفتوحة قد انتزعت منها القلوب . ومنذ ذلك التاريخ بدأت عادة تقديم الأضاحي باجتماع القلب وتقديمه للإله . والغذاء الوحيد الذي كان يستطيعه هويتزيلو بوشتلي الرهيب هو قلب لا يزال طازجاً قد اقتلع لتوه من صدر عبد أوسجين .

وتابع الأرتك سيرهم الطويل حتى وصلوا إلى وادي مكسيكو وبلغوا شابولتيبيك . وتنفس المسافرون المنهكون الصعداء عندما شعروا بأنهم وصلوا إلى غايتهم ، ولكن الإله المخيف ما لبث أن دمر أحلامهم المسألة مرة أخرى عندما قال لهم بأنهم أصبحوا حقاً قريبين من هدفهم ولكن ما زال أمامهم أن يقضوا على مقاومة الشعبين اللذين كانا قبلهم في الوادي . تلك كانت إرادته ، فوجب عليهم إذن أن يقروا قلوبهم قبل أن يسلموا أنفسهم إلى الراحة الأخيرة .

وعندئذ بدأت المعركة الطويلة في السوادي ، وتوالى الهزائم والانتصارات . وبينما كانوا يعيشون بسلام منذ بعض الوقت في إحدى قرى السوادي خاف هويتزيلو بوشتلي أن يستمرىء عباده العيش في هذه القرية فلا يرغبون بالخروج منها فوضع حداً لعلمانييتهم وحياتهم المسألة تلك وأمرهم بأن يتوجهوا إلى ملك كولهوا كان المجاورة ويطلبوا منه أن تدخل ابنته في خدمة إلههم . وعندما وصلت هذه البنت قام الإله بقتلها

وسلخها وأمر أحد نبلاء الأزتك بأن يرندي جلدها . وبعد ذلك دعي أقرباء الفتاة البائسة لحضور الاحتفالات ، فلما عرفوا بالجريمة التي ارتكبت انقضوا على الأزتك وأرغموهم على الانسحاب إلى المستنقعات المجاورة . عند ذلك أخذ الأزتك السيئ الحظ يتوسلون إلى إلههم بأن يمنحهم السلام لأن قوتهم قد أصبحت على شفا جرف . فأكد لهم هويتزيلوبوشتلي بأن نهاية محتهم أصبحت قريبة وبأنهم سيصلون قريباً إلى المكان المقصود الذي كان يرغب بأن يقيموا مدينتهم فيه .

ولم ينتظروا طويلاً . فبعد زمن قصير من هذه الأحداث ظهر الإله في الحلم لواحد من الكهنة وقال له :

«يا ولدي . أتذكر اليوم الذي أمرتك فيه بقتل كويل ابن الساحرة التي ادعت بأنها أختي ؟ . لقد أمرتك بأن تتزع منه القلب وترميه بين قصب المستنقع وعوسجه . ألا فاعلم اليوم أن هذا القلب إنما وقع على صخرة فخرجت منه شجرة من أشجار تين الهند NOPAL ، وكانت كبيرة وجميلة حتى أن نسرأثمت تغذيته بأنواع من الأغذية المختارة بنى عشه فيها ولا يزال يعيش هناك حتى الآن ، وهو ينشر جناحيه الجميلين الواسعين كي يتلقى أشعة الشمس أو طراوة نسيم الصباح . فاذهب غداً وستجده متسلقاً شجرة التين ، وستجد حوله كميات من الريش الأخضر والأحمر والأصفر والأبيض هي بقايا ما أكله من طيور . وقد أطلقت على هذا المكان اسم تينوشيتلان » .

تينوشيتلان . وانتهى السفر الطويل . وفي الصباح اتجه الجميع إلى المعبد لتقديم الشكر للإله ، وعندما انتهت مراسم الشكر نهض الكاهن الأكبر ليبارك الحضور وليزف إليهم نبأ المستقبل الذي ينتظرهم في هذه البلدة الكبرى :

وهناك حيث تنبت شجرة تين الهند ينتظرننا السلام والراحة والسعادة. هناك متكائهم وستزداد بنا هبة الأرتك. وسيصبح هذا المكان شهيراً بقوة أذرعنا وشجاعتنا، ويسمع العالم كله ما يقال عن قلبنا الشجاع الذي سنقهر به كل الأمم وكل البلاد مخضعين لقانوننا طرفي المحيط حتى أبعد المدن والمقاطعات. وسنسد كل هذه الشعوب وكل حقولهم وأبنائهم وبناتهم، وسنجرهم على خدمتنا وأن يدفعوا الجزية لنا، ذلك لأننا سنشيد هنا مدينة عظيمة هي ملكة كل المدن، وسيأتي لزيارتها كل الملوك والأسياذ ليجمعوا، وسيتطلع إليها كل الناس كما يتطلعون إلى محكمة عليا تقضي بين الجميع.

فنحن لن ندهش إذن بعد هذه البدايات التي بدأ الأرتك بها، وبعد هذه التقاليد التي خلفوها وراءهم، أن تكون الحرب والتضحية البشرية بالنسبة لهذا الشعب وكأنها دخان بخور في عبادتهم. وإذا نحن أكدنا الأهمية الكبرى لهذين المظهرين الأساسيين من حضارتهم فإن علينا ألا نهمل ما وصلوا إليه من كمال فني في تنفيذ هذين العاملين. فلقد أصبحت الحرب والتضحية البشرية لديهم طقساً ولكنها أصبحت قناً من جهة أخرى. فكانوا يبارسونها كفنانين مبدعين أساتذة في صنعتهم. وهكذا كثرت في احتفالاتهم المعارك الصورية. ولم يكن أحد من ملوكهم يضع على رأسه التاج إلا بعد أن يعود من حملة عسكرية يأتي منها بالأسرى الذين يمكن أن يقدموا أصحابي إلى هيتزيلو بوشتلي. فالحرب لم تكن بالنسبة لهم قناً فقط وإنما وسواس مسيطر لا يمكن الخلاص منه.

والأمر نفسه ينطبق على التضحية البشرية. فقد وصلت صنعة القتل الطقسي إلى كمالها، والأشكال التي كانت تتم به تكاثرت حتى لقد أصبحت تشهد على تفنن حقيقي. فهناك أولاً التضحية العادية

حيث تمدد التضحية على حجر التضحية بينما يمسك برأسها واطرافها
لمسة من الكهنة ، ثم يقوم منفذ التضحية بفتح صدرها بسكين من
الحجر ويمد يده إلى داخل الجرح حيث ينتزع القلب ويجعله مقدمة إلى
شفقي الإله أو يقدمه مباشرة للشمس . وفي كثير من المناسبات كانت
التضحية تتم فوق قمة المعبد الهرمي الشكل ، ثم تدحرج التضحية على
السلام إلى الأسفل قبل أن يتم الاستيلاء عليها وتقطع إلى أجزاء .

والطريقة الثانية هي أن تتم التضحية بقطع الرأس . والثالثة
بالسليخ ، وأخيراً بقتلها رمياً بالسهم . وفي هذه الحالة الأخيرة يربط
الأسير إلى صقالة ويطلقون السهم عليه . إلا أنه يوجد أيضاً - إضافة
إلى ذلك - عراق المجالدين الشهير ، وهو طقس بالغ المأساوية
والشذوذ . والسيء الحظ الذي يحكم عليه بأن يموت بهذه الطريقة يربط
إلى حجر دائري ولا يترك منه حراً إلا ذراعاه ، ثم يقوم بمهاجمته أربعة
من المحاربين الذين يرتدون جلود نمور أمريكية ونسور ، فإذا نجح
التضحية بمعجزة أن يدافع عن نفسه أضيف إلى المحاربين محارب
خامس . أما أن تأخذهم بالتضحية رحمة فينال العفو فإن ذلك أمر لا
يمكن أن يكون .

ولا بد لهذه الطقوس من أن تنعكس أعمق انعكاس على فكر
الشعب الذي كان يمارسها وعلى قلبه . ويمكننا أن نتوقع سلفاً أن مثل
هذه العبادات لا بد من أن تؤدي إلى كل أنواع القسوة والجنس
الدموي . ومع ذلك ، فإننا إذا أخذنا الأمور بطواهرها فإن شيئاً من ذلك
لم يحدث ، ذلك لأن الضحايا كانوا يتألفون في معظمهم من أسرى
الحروب أو من أناس اعتبرهم مواطنوهم قمينين بعقاب ديني . فقدماء
المكسيكيين - إذا نظرنا إلى الأمور بمنظار ما وصلنا من أوصافهم - كانوا
يمارسون فيما بينهم علاقات مسالة ومتساعمة على الرغم من قسوتهم في

معاملة أعدائهم . ومع ذلك فإنهم كانوا يعيشون في جو من الرعب يخفف منه أنه كان في جزء منه رعباً طقسياً . وما لا مرأى فيه أن الهول كان أبداً المسحة المسيطرة على تصاوير الآلهة وعلى الاحتفالات التي ترتبط بها . فلو أنه كان يوجد مجمع لآلهة الرعب فلا ريب في أنه سيكون مجمع آلهة الأزتلك ، وإليك بعض الأمثلة التي تكفي للبرهان على ذلك .

هنالك إله اسمه تيزكاتليوكا تبدو طبيعته الحقيقية من النعوت التي يستندونها إليه . فهو : «ذلك الذي نحن عبده» و«العدو الرهيب» و«السيد صاحب النزوات» . وكانوا يضحون على شرفه شاباً يتوجب عليه أن يمثل شخصية هذا الإله طول العام الذي يسبق التضحية به . أما كيتزالكواتل ، وهو أحد كبار الآلهة المهمين ، فيمثل جالساً ظهراً إلى ظهر مع إله الموت كما لو أن الغاية هي التذكير بأن أكثر الآلهة مسألة يمكن أن ينقلب فجأة إلهاً غريباً . وكانوا يحتفلون بالتضحية على طريقة السهام التي تكلمنا عنها على شرف تلاكزولتيرتل آكل الاقدار . كما كانوا يمارسون من أجله طقساً ذا قسوة مبتكرة يجبرون خلاله المرأة المحكومة بأن تمشي إلى الموت دون خوف بل بأن ترسم على وجهها مسحة من السعادة والحبور . وهنالك كسيب Xipe للشارب الليلي ، «سيدنا السالغ» ، ذلك الذي يُسر من رؤية ضحاياهم وهم يُسلخون . وأخيراً هنالك ميكتلانتيكوتلي سيد الموت والعالم الأسفل . وتمثله لنا إحدى المخطوطات المكسيكية الشهيرة ، هي (الكوديكس بورجيا) ، هيكلًا عظيمًا قد طليت أطرافه باللون مختلفة عماكاة لرجل قد تم سلخه منذ قريب . وهو يتزين برؤوس بشرية كأغطية لأذنيه . وإلى جانبه إله الموت وهي تقدم له جسداً بشرياً عارياً رمزاً للتضحية . وبالقرب منه يغلي قدر مليء بالدم الحار والقلوب . وفي الوسط جمجمة تبتلع رجلاً قد غاب رأسه بين فكّيها .

ولنسه وصفنا لهذه الديانة الرهيبة بقصة الرحلة إلى الأرض القفر التي يحكمها ميكتلاتيكوتلي وحيث لا يوجد - كما تقول نصوص كتابة أزيكية قديمة - «لا نور ولا نوافذ». ولم تكن هذه المحنة الرهيبة تفرض على الأزتلك كلهم وإنما هي مخصصة للطبقات الفقيرة أو أولئك الذين وقعوا فريسة لبعض الأمراض. وأول العوائق التي تواجه المسافر في رحلة العذاب هذه جبلان يتصادمان ويهددان نفس المسافر بالدمار من شدة النصب. فإذا سلمت من هذا الخطر وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام تعبان عظيم له كرش كبير وقبيح. ثم أمام تمساح ضخم مخيف. ثم يجب عليها بعد ذلك أن تجتاز سبع صحراوات وثلاث هضاب. ثم تتعرض لتجربة جديدة تتمثل بريح هوجاء تحمل قطعاً حادة من حجر الصوان. وأخيراً تصل النفس إلى شواطئ نهر يسمى «المياه التسعة»، فتجتازه على ظهر كلب أحمر لا بد له من أن يقتل بعد ذلك بأن يغرز في حلقه سهم.

ومهما كان الفاتحون الاسياتيون هواة رعب أحياناً فإنهم لم يكونوا قادرين على اختراع كل هذه الأنواع من التعذيب المبتكر التي ملأت حويلات ديانة الأزتلك وتاريخهم. وبما يجعل هذه القسوة أكثر رهبة أيضاً هي أنها لم تكن عمل قريحة شخصية وإنما كانت تستمد كل فظاعتها من تكرار آلي في فواصل ثابتة لدراما دينية. وقد وصلت هذه القسوة إلى ذروتها في الاحتفال الشهير الذي كان يقام على شرف تيزكاتليوكا. ومن ذا الذي لا يعرف هذا الطقس الغريب الذي يختار فيه شاب على جانب كبير من الجمال ذو فضيلة ليس لها مثيل ليمثل الإله خلال عام كامل. وكانت تضيء على هذا الشاب كل نزوات الإله. وفي نهاية المدة المقررة كان يضحي به على يد الكهنة القساة القلوب من أجل تنفيذ هذا التقليد المخيف.

ففي كل عام كان الكهنة يستعرضون إذن بكل انتباه أوجه أجمل أسرارهم ليختاروا منهم من هو أصلاح من بينهم لتمثيل شخصية الإله . وكان ينبغي أن يكون سليل عائلة نبيلة وأن يكون متمتعاً بلطف وجمال غير عاديين . وكان يعهد به إلى كهنة مختصين ينبغي عليهم تثقيفه في كل الفنون النبيلة ، وكان الأرتك ينتظرون منه بعد ذلك إن يجيد العزف على الناي ، وأن يتقن الحديث ، وأن يُحَيِّيَ حسب القواعد ، وأن يعرف أنواع الزهور ، ويتقن استعمال أنسوبة تدخين التبغ المصنوعة من القصب . وكان يُحرم في كل مكان يذهب إليه بشانية من الغلمان يلبسون الكسوة الرسمية لخدم القصر . وكان باستطاعته أن يذهب حيث يشاء وفي اللحظة التي يشاء وأن يأكل على هواه ما شاء من المأكول النادرة ، ولكن من أجل أن يمنع من أن يصبح سمياً جداً كان عليه أن يتناول الماء المالح بين فترة وأخرى .

وعند مروره كان الكل يعبدونه ويقدمون له الاحترام . اليس الصورة الحية للإله تيزكاتليوكا؟ وهكذا كان يمضي من مكان لآخر عازفاً على نايه المصنوع من الطين ومرتدياً ألبسته الفخمة التي قدمها له الملك شخصياً . وكان الناس يتدافعون حوله ليقدّموا له احترامهم ويقبلوا الأرض بين قدميه . وكانت تلك في الواقع مناسبة للتمتع برؤية جمال لا ينسى . فكان وجهه وجسده مطلين باللون الأسود ، وشعوره الطويلة تسقط على طول قامته . وكان يعتنر على رأسه ويضع حول خصره طاقات من الزهور الزاهية الألوان . وكانت قلادته من الحجارة الثمينة مع مشنشات رائعة وأقراط من الذهب وديوس شفة صنع من أحسن أنواع الصدف . وكانت ذراعه فوق المرفق تحاطان بأساور من الذهب ، بينها القسم منها من المرفق إلى القبضة مغطى بصفوف من الأحجار الثمينة . وكانت تثبت في قدميه أجراس صغيرة من الذهب .

وأخيراً فإن رداءه كان يصنع من أفضل ما يمكن أن يتصوره الإنسان من أنواع الأقمشة .

ذلك كان لباسه طول العام . إلا أنه كان عليه أن يرتدي قبل عشرين يوماً من العيد المشؤوم البسة أكثر تواضعاً ولكنها جميلة دائماً . وكانت تنتظره ملذات جديدة . فقد كانوا يزوجونه بأربع من الصبايا خصصن لهذه الغاية ويحملن أسماء أربع من الإلهات .

وكان الأسبوعان الأخيران يمران مر السحاب في عيني ذلك المحكوم . وتعين الأيام الأربعة قبل التاريخ المشؤوم لاحتفالات رقص وولائم تلتف فيها كل طبقات الشعب . باستثناء من الملك . بالرجل الإله . ويقوم الرقص كل يوم في أحياء مختلفة عن تلك التي قام بها في اليوم السابق . ولكن ساعة التنفيذ تدنو . ويدخل الضحية مع زوجاته الأربع إلى مركب مفتوح هو أصلاً من مراكب الملك بوجه عام ، ويقادون إلى جزيرة تقع في بحيرة مكسيكو . وعندئذ تنزع منه زوجاته الجميلات ويوضع في معبد صغير محروساً بخدمة الستة وهو يمسك بيديه عدداً من مزامير الناي هي الذكري الوحيدة لهذه السنة التي فرضت عليه فيها السعادة والبذخ والمقام الرفيع . ويصعد ببطء درجات للمبد وهو يكسر نائياً على كل درجة من درجاته . وما أن يبلغ القمة حتى يمسك به الكهنة ويقدموه قرباناً للإله .

وعلى الرغم من غزارة الاحتفالات التي كانت تجري في أمريكا والتي كان يحس المشتركون فيها بأنهم يمسكون الأله فإننا لا نجد في أي مكان مثل هذه الدراما الدينية وبمثل هذا التركيز .

ومن البدهة أنه من أجل الاحتفال بهذا الطقس المنوع والمفصل والذي يعود في كل عام إلى التاريخ نفسه لا بد من جهاز كبير من الكهنة وخدام الدين . ومع ذلك ، ومهما كانت منظمة ديانة الأزتك فإنها

لم تكن على مستوى أن تقارن بديانة المايا، ليس لأن ديانة الأزتك كانت تبسيطاً لديانة المايا وإنما لأن الكاهن فيها - على عكس ما كان يجري لدى المايا - كان يلعب دوراً تابعاً لدور المحارب . ففكرة الحكومة الدينية التي سيطرت على حضارات يوكاتان وأمريكا الوسطى كانت تضعف باستمرار عند مرورها في شعوب الشمال . وكانت لا تزال قوية لدى الزابوتيك الذين كانوا يعيشون إلى الجنوب من الأزتك ، أما لدى قبائل الناهواتل الذين سبقوا الأزتك إلى وادي مكسيكو فإنها أضاعت الكثير من سلطانها ، واختفت تماماً إلى الشمال من الوادي باستثناء منطقة وحيدة تقع إلى الجنوب الغربي من الولايات المتحدة عند هنود البويبلو حيث كان لها بدون شك أصل متأخر .

وإذا كان التنظيم الديني لدى الأزتك والقبائل ذات القرابة منهم والتي سبقتهم إلى مكان سكنهم لا يشير فينا اهتماماً كبيراً فإن تنظيم الدولة لديهم أقل إثارة للاهتمام .

وقد ترك لنا الفاتحون الإسبان ومن بينهم كورتيز أوصافاً خيالية لشهوة مملكة مونتيروما وعظمتها ، ولكن معلوماتهم عن أنماط التنظيم الاجتماعي في هذه المملكة كانت غامضة ، كما أن العادة القبيحة التي كانت متأصلة فيهم بأن يفسروا كل ما يرونه بالمقارنة مع الملكية المطلقة والنظام الاقطاعي اللذين كانا سائدين في بلادهم شوه تشويهاً كبيراً حقيقة الأوضاع . ومع ذلك فإننا نعرف ما فيه الكفاية لنكون صورة قريبة بعض الشيء مما كانت عليه الحال في تلك المملكة .

كان مجتمع الأزتك - وهذا أمر طبيعي بعد أن عرفنا ماضيهم وتحركاتهم - يمثل نوعاً من التنسيق بين المؤسسات الديمقراطية التي أتى بها الأزتك معهم من موطنهم الأصلي وبين الحضارات الأرستقراطية التي احتكوا بها في وادي مكسيكو . ولم يكن هذا التنسيق موفقاً دائماً بل

سبب الكثير من التناقضات والتعارضات التي كانت تسبب دائماً كثيراً من العنت للمؤرخين . وكان الميل إلى الحكم المطلق وإلى النظام الارستقراطي من الواضح لدرجة أن الكثيرين من الاسبانين وصفوا لنا مونتيزوما على أنه ملك حقيقي . وعندما كان أحد الرجال يتوجه بالكلام إلى أحد النبلاء كان ينبغي عليه أن يستعمل صيغة خاصة تدل على الاحترام بينما كانت هذه الصيغة في الماضي دليل مودة ومحبة . ويتضح ذلك أيضاً في التغيرات التي طرأت على ملكية الأرض وفي السلطة التي منحت لأحد زعماء القبيلة . وبعبارة أخرى فإن ما كان في الماضي نظاماً زراعياً بسيطاً تعدل حتى أصبح بتطبيق عدد من التدابير إلى نظام يربط العامل بالأرض أكثر فأكثر ويحد من حرية عمله ومن حقه في ملكية محاصيله . وما كان في الماضي لا يخرج عن كونه تعبير احترام لزعيم القبيلة العسكري تطور تدريجياً حتى جعل من هذا الزعيم ملكاً أويكاد .

في هذا الوضع الجديد للأمور لا بد أن الأتراك استعاروا بعض العناصر من الشعوب التي اتصلوا بها ، ولكن الكثير من هذه العناصر لا بد من عزوها بطبيعة الحال إلى تعديلات أتت من داخل النظام الاجتماعي بمقدار ما كان الأتراك يحتلون مكسبهم تحت الشمس وبمقدار ما كانت تزداد أطماعهم الاستعمارية ويزداد عدد المدن التي يحتلونها .

على رأس الدولة إذن كان الملك . وإذا أردنا الدقة أكثر فإنه كان يسمى «زعيم الرجال» . وكان ينبغي أن يكون رصيناً متحفظاً عاقلاً بشوشاً وفصيحاً . وبالإضافة إلى هذه الفضائل المسئلة كانوا يتطلبون منه شجاعة لا تقهر وكثيراً من الأناة . وكان يتزيا بزي خاص : ففي المدينة كان يضع شعوراً معقودة خلف رأسه ، بينما يرتفع فوق رأسه

باقية من الريش الأخضر. وفي ساحة المعركة كان يرتدي ضفيرة من الريش تنزل من قذاله حتى أسفل قامته، وهي زينة من السهل أن نقارنها بما يلبسه محاربو داكوتا الحاليون، كما أننا نعرف الأصل الذي انحدرت منه، فقد انحدرت، كما هو الحال في كثير من العناصر الثقافية الرئيسية، من بلاد المايا، ذلك لأن نقوش البالينك هناك تظهر لنا أناساً يرتدون زينة تكاد تكون مطابقة لما كان يرتديه ملك الأزتك أو ما يرتديه محاربو داكوتا حتى اليوم.

أما سلطة الملك وكذلك حقوقه في حياة رعاياه فكانت مقيدة نسبياً، ولكنها تكاد تكون مطلقة على الشعوب الخاضعة وعلى الموظفين الذين يعينهم الأزتك لسياسة هذه الشعوب. وكانت السلطة الملكية كبيرة في المجال العسكري. ولكنها تصبح بلا حدود عندما تتعلق بالحياة الشخصية للأمير، أو على الأقل كان الأمر كذلك في عهد مونتيوزوما الثاني، ففي عهد «زعيم الرجال» هذا كان القصر يمثل مشهد بلاط الملكية مطلقة حقيقية مما كان معروفاً في أوروبا يومذاك.

وليس من شيء يعطينا صورة أفضل عن الجو الذي كان يحيط بملك الأزتك في ذلك الوقت من خطابين وصلانا، في أولهما يقدم أحد جيران الملك ومحالفيه من الزعماء تهنئة له لاعتلائه العرش، وأما الثاني فقد ألقاه الملك بنفسه لإصلاح بعض التغييرات التي طرأت على حياة البلاط. وعلى الرغم من أن تركيب الجمل أو تركيب بعضها في كلا الخطابين تركيب إسباني فمما لا شك فيه أن الخطابين نفسيهما كانا أصيلين.

ولنثبت في بادئ الأمر وحرفيته الخطاب الذي ألقاه ملك تيزكوكو عندما وصل مونتيوزوما إلى العرش:

«لقد سعد شعب هذه المملكة سعادة بالغة عندما تلقاك زعيماً له

أيها الفتى المشهور! لقد تصرفنا بكل حكمة عندما انتقيناك مباشرة وعندما أظهرنا فرحنا بعد انتخابك . ولا يداخلنا شك في صدق أقوالنا . إن الامبراطورية المكسيكية الآن واسعة لدرجة أنه من أجل حكم هذا العالم الواسع ، ومن أجل أن تحمل على كتفك هذا العبء الثقيل ، لا بد لك من صلابتك ومن قوة قلبك الشجاع ، ومن هدوئك وعلمك وأثارتك . ولذلك أؤكد أن الله العلي القدير يحب هذه المدينة لأنه أنار لنا أفئدتنا في اختيار الرجل الذي كانت المملكة في حاجة إليه . إذ من منا لا يقتنع بأن سيداً وأميراً تمكن أن يفهم - قبل أن يصبح ملكاً - أكاذيب السماء التسع ، لن يظهر بعد أن يصبح ملكاً تفهماً واضحاً لقضايا الأرض من أجل مصلحة شعبه؟ . من لا يستطيع أن يتصور أن المشاورة التي أظهرتها في معالجة القضايا الهامة قبل أن تتحمل أعباء مسؤولياتك يمكن أن تتخلى عنك أبداً؟ . من يشك حتى ولو للحظة واحدة أنك ارتكبت خطأ في حق أرملة أو يتيم؟ . وأخيراً منذ الذي لا يقتنع بأن الامبراطورية المكسيكية إنما وصلت إلى ذروة مجدها لأن الإله القدير سعى لأن يكشف بين يديك مثل هذه المقدرة ولأن أي إنسان بمجرد أن يلقي نظرة واحدة إليك يمكنه أن يفهم أنك إنما تعكس مجد الإمبراطورية وعظمتها؟

فتمتعي إذن أيتها البلاد السعيدة بأن سيد الخليقة أعطاك أميراً تعتمدين عليه في كل مشاريعك ، أعطاك أباً وأخاً من حيث التقوى ومن حيث الخنان . تمتعي إذن ، ولك الحق في أن تتمتعي ، بأنك تملكين ملكاً لا يضيع وقته على حساب الدولة بالتمرغ على سرير النقائص واللذائذ ، ولكنه من أجل أن ينام مرتاح الضمير يحافظ على تفكيره صافياً ويبقى متيقظاً طوال الليل وهو يقلب النظر في أفضل وسيلة عن طريقها يستطيع أن يقدم لك الخدمات . ملك لا يكاد يتذوق طعم

المآكل اللذيذة لأن مشاغله في تحقيق مصلحة شعبه تستغرق منه كل الوقت . فتذكري إذن أيتها المملكة السعيدة أن لدي من الأسباب القوية ما يجعلني أعتبرك سعيدة وتنفسي الصعداء . وأنت أيها الشاب الكريم والسيد القدير، بما أن خالق كل شيء عهد إليك بهذه المهمة فإن عليك أن تتشجع ولا ترفض ما منحك إياه من احسان، ولتكن قادراً على المحافظة على هذه النعم منين طويلة من السعادة والهناء .

أما الخطاب الثاني فيقدم لنا لمحة ممتازة عن عقلية واحد من نبلاء الأزتك . والفصاحة المزخرفة التي تبدو فيه إنما هي من خصائص كل خطاب يلقيه أي خطيب من الأزتك . وقد وجه مونتيزوما هذا الخطاب إلى شيخ من شيوخ البلاط بالعبارات التالية :

« لا شك أن تعرف يا أبي أنني قررت أن على كل من يخدمني أن يكون فارساً أو ابناً لامير أو سيد . ولا يندرج ذلك فقط على أولئك الذين يخدموني في بيتي وإنما أيضاً على كل من يشغل في المملكة مركزاً هاماً . ويضطرب قلبي عندما أفكر بأن الملوك الذين سبقوني كانوا يتحملون أن يقوم على خدمتهم أناس ذوو مولد وضع . فدعني إذن أسوغ أمام عينيك وجهة نظري .

أنت لا تجهل إلى أي مدى تختلف حياة النبلاء عن حياة العامة من الناس . فإذا استخدم الرؤساء، وبخاصة الملوك، هؤلاء الأخيرين فإنهم سيجلبون على أنفسهم الكثير من المتاعب . والواقع أنه إذا قام الملك فألحق بالسفراء حارساً من العامة فإن هذا الشخص ذا النسب الوضع سيكون مثار دهشة بكلامه العامي بينما يتوقع الفارس أن يوجه إليه الحديث بطريقة منمقة متروية . وعند ذلك سيقول كل الناس بأننا لا نعرف أن نقلر أصحاب النسب الرفيع . ولتذكر من جهة أخرى أن هؤلاء الريفيين مهتما كانت ثقافتهم يحتفظون دائماً على

أجسادهم برائحة الريف . وأخيراً فإنه ليس من العدل ولا من اللياقة أن يتفعل كلام الملوك والأمراء ، أولئك الذين يمتلكون الكثير من المجوهرات والأحجار الكريمة ، عن طريق أفواه رجال حقير بن من ذوي النسب الوضيع . فذلك الكلام ينبغي أن تلتقطه دائماً أذان جديرة به كأذان الأسياد والأمراء . إن هؤلاء الناس الشعبين لا يمكنهم إلا أن يجلبوا الكراهية علينا ، ذلك لأننا إذا كلفناهم بمهمات تتطلب عقلاً نبيلًا وثقافة فإنهم بعاصيتهم ونقص ثقافتهم سيثلمون هيبتنا . ولذلك فإنني أمرك بإعفائهم من وظائفهم مهما كان أمرها ، أن تعفي كل أولئك الذين يتمنون إلى نسب وضيع ، وأبدأ بأن تطرد كل من سيأتيك في المستقبل من الريف» .

وبعد ، فما فائدة أن نناقش سلطة رئيس الأرتك كي نعرف ما إذا كانت ملكية أو غير ملكية ؟ . لقد كان الرئيس محاطاً بكل الجلال الملكي ، وكان يلعب في الدولة دوراً مزدوجاً : فهو أولاً يمثل رمزاً لوحدة شريت بشمن غال ، كما أنه كان ثانياً القائد الأعلى للجيش . وهذا الشكل المزدوج لوظائفه كان يحافظ عليه دائماً وهو الذي كان يمنع الملكية المكسيكية من الانجراف إلى الحكم المطلق ، ذلك لأن امبراطوريته إنما كانت ترمز في خيال الشعب إلى وحدة الأرتك وإلى قوة الأرتك وإلى النزعة الاستعمارية للأرتك ، وكل ذلك كان يرتبط بدوره بنجاحاته العسكرية . وعلى غرار الأسير النبيل الذي تجسد فيه الإله تيزكاتليوسكا كما رأينا فإن الملك كان ينبغي عليه أن يبقى نقياً من كل عيب تحت طائلة أن يصبح هو نفسه ضحية للآله وأن يتعرض للمخلع عن العرش . وذلك ما كان مصير آخر الملوك الذي انتصر عليه الإسبانيسون ، فقد انقلب عليه شعبه حتى لقد وجد من ادعى بأنه إنما قُتل بسهم من سهام الأرتك .

بعد «رئيس الرجال» كان يأتي في المقام موظف كبير يحمل اسماً غريباً هو الشعبان - الأنثى . وعلى عكس مهمة «رئيس الرجال» فإن مهمة الشعبان - الأنثى كانت ترمز إلى السلم . فعندما كان الملك يذهب إلى الحرب كان على هذا الموظف الكبير أن يبقى في المدينة . وتشير كل المعطيات التي بين أيدينا على أن الشعبان - الأنثى كان فيما مضى أكثر أهمية من «رئيس الرجال» ، الأمر الذي يشكل وضعاً أكثر انسجاماً مع نموذج الحكومة الطبيعي لدى الهنود حيث يقوم الرئيس المدني بحكم القبيلة بينما لم يكن للرئيس العسكري بينهم إلا دور ثانوي ، ولم يكن هذا التوزيع الأولي للوظائف قد عدل لدى المايا في غواتيمالا ولا لدى السيو أو الأوجيسوا في ويسكونسن ومينسوتا عند الفتح . وكان الأزتك وحدهم من كسروا هذا التقليد القديم الجليل الذي لم يستطع أن يقاوم هالة المجد التي وضعتها الانتصارات العسكرية فوق هامة جيش الأزتك في عيون الشعب .

وكانت مدينة مكسيكو منقسمة إلى أربعة أحياء وإلى عشرين زمرة محددة تحديداً واضحاً وربما كانت تمثل ما كان في الماضي قبائل مختلفة . وكان لكل واحد من هذه الأحياء رئيس عسكري يحمل لقباً خاصاً له مغزاه من أمثال «رجل بيت السهام» و«قاطع الرجال» و«مسيل الدماء» و«رئيس النسر» . ويبدو أن هؤلاء الموظفين الكبار كلهم كانوا ملحقين عسكريين يستخدمون في نقل أوامر الرئيسين الكبيرين . وكان الثلاثة الأولون بينهم يتمتعون بأهمية خاصة من واقع أنهم ربما كانوا مهئين في المستقبل لاحتلال مركز «رئيس الرجال» أي الملك .

ومن بين الموظفين الكثر كان الرئيسيون هم زعماء «القبائل» العشرين والخطباء وجامع الضرائب التي كان يجب أن تدفعها المدن المغلوبة ، وكان يسمى «جامع المحاصيل» . و«الخطباء» هم أكثرهم لفتاً

للاتنباء ، ليس فقط بسبب وظائفهم وإنما لأننا نجدهم كثيرًا إلى الشمال من ريسوغرانند . وكان يعهد إليهم أن ينقلوا إلى مجلس القبيلة تعليمات كانت تتطلب منهم إلقاء خطب طويلة ، كما كان على غيرهم من الخطباء أن يعطوا رد القبيلة على هذه التعليمات . وهكذا نستطيع أن نعتبرهم محامسين رسميين عن كلا الطرفين في كل دعوى . وهذه الوظائف نفسها وجدت حتى بين هنود ميتشيغان الشمالية ، وهي تمثل بطبيعة الحال إحدى الروابط الكثيرة التي توحد بين طلائع الحضارة التي تشمل فيها تشمل قبيلة الأوجيوا ذات الزراعات الواسعة في الجنوب .

وكان مجتمع الأزتك ينقسم إلى ثلاث طبقات : النبلاء والشعب والعبيد . وكانت الطبقتان الأوليان تنقسمان بدورهما أيضاً . فبين النبلاء ينبغي أن نميز بعناية بين أعضاء عائلة الملك الكبرى وبين حاشيته المباشرة ثم أحفاد الأشخاص الذين نالوا مكانتهم في الحروب أو الذين كانوا يحتلون بعض المناصب في امبراطورية الأزتك الواسعة . وكان النبلاء يتميزون من حيث مظهرهم الخارجي عن العامة بأرديتهم وبشاراتهم العسكرية التي يتزينون بها .

وينقسم العامة فيما بينهم أيضاً إلى عدد من الزمر المتمايزة . فاولاً هنالك المزارعون ، ثم الحرفيون ، وبعد ذلك التجار . ويبدو أن الحرفيين كانوا منتظمين في طوائف محددة تماماً ، ولهم مركز عبادة مشترك ويحافظون على عدد من القواعد المتعلقة بالتدريب . وكان الصاغة يحتلون بطبيعة الحال مكانة أعلى من الآخرين ، ويأتي بعدهم الخزافون وعمال الريش وعمال الفسيفساء الزرقاء والنساجون والصباغون .

وعلى الرغم من تنظيمها العالي فإن طائفة الصاغة ما لبثت أن انمحت أمام طائفة التجار التي كان يطلق عليها اسمان لها مغزى : والرجال الذين يبادلون شيئاً بشيء آخر ، والرجال الذين يأخذون أكثر

مما يعطون». والسبب في الدور الهام الذي كان يلعبه التجار تفسره بعض الضرورات التجارية. فعندما كانوا يذهبون في أسفار طويلة لزيارة أسواق القبائل الأخرى ومبادلة منتجات بلادهم بمنتجات البلاد الأخرى كان لا بد لهم من أن يتنظموا في جماعات. كما كان لا بد لهم من أن يكونوا مسلحين وأن يلجؤوا إلى الدبلوماسية في معظم الأحيان. وعدا عن ذلك فقد كانوا بحاجة إلى محالين لبضائعهم وإلى عدد من المحاربين الخصوصيين لحمايتهم. فالمشروع التجاري كان إذن كما لا يزال أسره في العصر الحاضر حملة عسكرية. وكان التجار يجلبون معهم في عودتهم ليس فقط منتجات الأمم الأجنبية وإنما أيضاً معلومات ذات طبيعة متنوعة ومؤثرة، مثال ذلك مدى قوة البلاد التي زاروها، وخير طريقة لمهاجمتها، وفي النهاية كل ما كان بإمكانه أن يخدم شره النزعة الاستعمارية التي كانت تسود في بلادهم.

وكانت طائفة التجار نفسها تنقسم إلى طبقات. فهناك الأمراء - التجار الذين كانوا يعيشون في الأحياء الأرستقراطية من المدينة والذين كانت طبقتهم تعادل من كل الوجوه طبقة النبلاء. وكان هؤلاء الأخيرون ينظرون بعين الحسد لسمو مكانتهم فتتجرب بسبب ذلك المنازعات الدائمة بين الطرفين. ومن بعدهم تأتي طبقة تجار العبيد ثم التجار العاديين الذين كانوا يتكبرون تحت هذه الصفة فتحميمهم ويزورون بلاد الأعداء ليكونوا جواسيس حقيقيين لبلادهم.

أما العبيد فكانوا يحتلون أسفل السلم الاجتماعي. وحتى بينهم كانت توجد درجات مختلفة آخرها كانت درجة أسرى الحروب الأشقياء، ثم تأتي فوقها درجة المجرمين، ثم درجة الذين بيعوا عبيداً على يد آبائهم، وكان هؤلاء الأخيرون يستطيعون في بعض الظروف أن يشتروا حريتهم بينما كان الآخرون محرومين منها على الدوام.

ولم يكن بإمكان أية حضارة بمثل هذا التعقيد أن تنهض بدون طريقة محددة ومنهجية للتربية . ومن حسن الحظ أننا نملك تدويناً هير وغلغيفياً لكل مراحل التعليم يدلنا بدقة على السن التي كان فيها الأولاد ينتقلون بين مراحل التربية المختلفة بل وحتى كمية الطعام التي كانت تخصص لهم . في سن الثالثة مثلاً كانوا يتناولون في الوجبة الواحدة نصف قطعة صغيرة من الخبز فحسب . وما إن يبلغوا الرابعة أو الخامسة حتى يحملوهم على بذل جهود جسدية قليلة الإرهاق كان يعملوا أحياناً خفيفة في الوقت الذي تتعلم فيه الفتيات الاعتياد على المغزل . ويتألف مخصصهم الغذائي عند ذلك من قطعة صغيرة كاملة من الخبز . وما بين السادسة والسابعة يرافق الصبي أباه إلى السوق بينما تبدأ البنت في الغزل ، ويتناولون قطعة صغيرة ونصف قطعة من الخبز ولا تعدل هذه الجارية حتى بلوغ الثالثة عشرة من العمر . وما بين سن الثالثة عشرة والخامسة عشرة يعمل الصبية الشباب في البحث عن الحطب من الجبال وجلبه إما عن طريق البر أو باستعمال المراكب أو أن يكلفوا بصيد الأسماك . وفي هذه السن كانت الفتيات يطحنن الذرة ويهشن الطعام وينسجن . وأخيراً في سن الخامسة عشرة يمكن للشباب أن يختاروا بين أن يضعوا أنفسهم بين أيدي كهنة يقدمون لهم تربية دينية أو أن يضعوا أنفسهم تحت وصاية معلم يشرف على تدريبهم العسكري . وكان يوجد نوعان من المدارس ، مدارس النبلاء ومدارس الشعب . وكان التلاميذ كلهم يرتدون اللباس الأسود ويتركون شعورهم طويلة . وكانوا يوكلون إلى إشراف كهنة خصوصيين ، وكانت الغاية الأساسية من التربية هي تعليم الأطفال الفروع التي تتعلق بمستقبلهم المهني مع إعطائهم معلومات عن الدين والأخلاق وحسن السلوك . وكان النبلاء والشمعيون من التلاميذ يختلفون بعضهم عن

بعض بأن هؤلاء الأخيرين لا يقومون إلا بالأعمال الثانوية من تكنيس للمعبد والمحافظة على نار المبخار والبحث عن الخطب وغير ذلك . أما التلاميذ النبلاء فكانوا يدرسون إضافة إلى الأعمال السابقة الأدب (الذي كان يتألف أساساً من الأغاني البطولية والتراتيل المقدسة) والتقويم والكتابة وتفسير الكتابات المير وغليفية وغير ذلك .

أما تعليم الفتيات فكان يقتصر على اهتمامات منزلية متخصصة كالعناية بالمعابد والغزل وإنجاز أعمال من الريش ونسج الأغطية وغيرها . وكانوا يعلمونهن بوجه خاص كيف يظهرن الخضوع في حضرة كبار السن وكيف يكلمنهم باحترام وكيف يحرصن في كل وقت على التمسك بالتواضع .

وكان الصبية والفتيات يترددون على المدرسة حتى الزواج . وهذه الظاهرة مضافاً إليها تفصيلات أخرى في تعليمهم تسمح لنا بأن نؤكد أن هذه المدارس تشابه في بعض وظائفها «أكواخ المراهقة» التي نصادفها كثيراً في أمريكا الشمالية . وبعبارة أخرى إن لنا كل الحق بأن نعتقد أن أكواخ المراهقة عند هنود الولايات المتحدة وكندا إنما تمثل أواخر آثار النظام المدرسي عند الأزتك . ونحن لا نجهل أن مدارس الأزتك إنما اشتقت من مدارس أكثر منها تعقيداً هي تلك التي كانت لدى المايا . ولكن فلتتوقف قليلاً وننظر ماذا كان يقوم أب من الأزتك بتعليم أبنائه . والقطعة التالية تقدم لنا موجزاً عن كل ما كان يعتبر نبلاً وسامياً في أعين الهنود الأمريكيين الذين كانوا ينتمون إلى حضارات الأزتك والمايا والقبائل البدائية في كندا الشمالية :

«أعسروني أذنكم وأصفوا إلي يا أبنتائي لأنني أبوكم ، ولقد اختارتني الآلهة على الرغم من عدم جدارتي لأدير هذه العائلة . فأنت يا أول من ولد من أبنائي ، وأنت أيها الثاني ، وأنت أيها الثالث ، وأخيراً

أنت أيها الأخير ، اعلّموا أن قلبي مفعم بالقلق من فكرة أن بعضكم لن يتمكن من أن يظهر جدارته في الحياة وأن يبدو غير جدير من بعدي بأن يجعل أعبائي وأججادي . وربما كان بإرادة من الآلهة أن البيت الذي بذلت في بنائه كل جهدي سينهار ولا يبقى منه إلا كومة من أنقاض ، وأن اسمي سيختفي من ذاكرة الرجال ، وألا يتحدث عني أحد بعد موتي . فاسمعوا إذن ما سألفظ به الآن من كلمات لكي تتعلموا كيف تصبحون مفيدين ولكي تجعلكم الآلهة صالحين . وما أنذا أقول لكم الحق : إن أولئك الذين يبكون ويحزنون ، أولئك الذين يحرسون على أن يسود النظام والنظافة في المعابد ، هؤلاء هم الذين يعطيهم الآلهة المجد والسمعة الطيبة والغنى والرخاء كما يعطون ذلك أيضاً لأولئك الذين يحرزون النصر في المعارك .

وهؤلاء هم الذين يعترف الآلهة بأنهم أصدقاؤهم ويمنحونهم المراكز العليا والمناصب العسكرية والنصر في ميدان القتال ومكانة مرموقة في المحاكم ، كما يجعلونهم أصهاراً للشمس لكي يقدموا الطعام والشراب ليس فقط لآلهة السماء وإنما لآلهة الجحيم أيضاً . والذين يصبحون موضوع هذه التشريفات يكرمهم الأبطال والمحاربون ويعتبرهم كل الرجال آباء لهم لأن الآلهة هي التي أعطتهم مكرماتهم وجعلتهم أهلاً لاحتلال مكاناتهم العليا وأن يحكموا بين الناس بالعدل . وقد وُضعوا بالقرب من إله النار أبي الآلهة كلهم ، ذلك الإله الذي يحيط بمسكنه المائي أبراج وأسوار من الأزهار ويسمى أيا ميكتلان كسيوهتيكوتلي ، أو يسندون إليهم مكانة أدنى ، وقد يحدث أن يسندوا إليهم مهمة كالتى أسندت إلي ليس بفضل جدارتي الشخصية ولكن لأن الآلهة لا يعرفون عدم جدارتي بها ، وأنا لم أصبح ما أنا عليه بفضل ما قمت به من مساع شخصية ، فأنما لم أقل قط «أريد أن أكون كذا أو

أرغب في مركز كذا»، فالآلهة برغبتهم المحضة أسندوا إلي هذا الشرف، ذلك لأن كل شيء يعود إليهم وكل نعمة إنسا تأتي من أياديهم. فلا ينبغي لإنسان أن يقول «أرغب بهذا الشرف أو ذاك» لأن الآلهة تعطي بمحض رغبتها ولن ترغب بأن تعطيه وهي لا تحتاج لأية نصيحة من أحد.

وثمة ألم آخر يتأبني يا أبنائي عندما أقوم في منتصف الليل أصلي وأعبر عن ندمي وتوبيتي، وعند ذلك أتأمل في كثير من المواضع ويخفق قلبي بضربات قوية كالضربات التي يحفرون بها الجبال لأنني لست راضياً عن أي واحد منكم. فانت يا ابني البكر لا تبدو عليك أية بادرة من بوادر التبذل، فلا يبدو أنك ستصبح رجلاً بل ستبقى ولداً على الدوام. أنت لا تتصرف كما ينبغي أن يتصرف الولد البكر. وأنتما يا ولدي الثاني والثالث لا تبديان أي تعقل ولا أي حزم. فهل مرد ذلك أنكما تحملان نفسيكما لأنكما الثاني والثالث من أبنائي؟. فما مصيركما في الحياة؟، ألستما من سلالة آباء نبلاء ولستما ولدي فلاحين وحطابين؟

وهنا آنذا أكرر مرة أخرى، ما الذي سيحل بكم؟. أليس لكم أطماع أخرى غير أن تصبحوا بائعين تسافرون والعصا في أيديكم والأحمال على ظهوركم؟. أتريدون أن تكونوا فلاحين تعملون في الأرض بأيديكم؟. أصغوا إلي يا أبنائي وزنوا كلامي فانا أريد أن أدلكم على الطريق القويم. تعلموا الرقص والموسيقى والغناء فتمتعوا بذلك الشعب والآلهة في الوقت نفسه، ذلك لأن الوصول إلى السعادة والثروة إنسا يتم عن طريق الموسيقى والغناء. واحلوا أنفسكم على تعلم مهنة شريفة، كأشغال الريش والمعادن الثمينة مثلاً فتحصلوا بذلك على طعامكم في أيام الحاجة والاضطرار. ولا تهملوا أي فرع من فروع الزراعة لأن الأرض لا تتطلب لا غذاء ولا شراباً وإنسا تريد فقط أن

تعطي . ولم يكن أجدادكم ينسون هذه الأمور، وعلى الرغم من أنهم كانوا نبلاء فإنهم كانوا يسهرون على أن تكون أرضهم حسنة الاستثمار . فإذا كنتم لا تفكرون إلا بطبقتكم العالية وتنسون هذه الأمور فكيف يمكنكم أن تطعموا عائلتكم ؟ فليس من مكان في العالم يعيش فيه الإنسان من نبالته وحدها .

قبل كل شيء اجتهدوا في أن تؤمنوا ما هو ضروري للجسم فهنا أساس كيانكم ، هنا لحمكم وعظمتكم ، هنا ما يعطينا الحياة والقوة والقدرة على العمل . وليس من انسان في العالم يستغني عن الطعام لأننا كلنا نملك معدة وأحشاء . إن أكبر الأمراء يحتاج إلى الغذاء ، والمحارب الأكثر مهابة يحمل معه كيساً يضع فيه ما يحتاجه من مؤن . فعن طريق صيانة الجسد تستمر الحياة ويعمر العالم . فلا تهملوا إذن يا أبنائي أن تزرعوا الذرة والماغوي التي تسر ثمارها الأطفال وتنعمشهم وتروي عيشهم . وأنتم أنفسكم أيها الشباب ألا تحبون هذه الثمار ؟ فكيف تحصلون عليها إن لم تزرعوها وتسهروا على نباتها ؟ .

والآن يا أبنائي يجب أن تكونوا متنبهين لمغزى مقالتي واحفظوها في قلوبكم . وإن لدي لأشياء أخرى أريد أن أقولها لكم ولكنني لن أتمكن من قولها كلها . لذلك سأكتفي ببعض كلمات أرددتها عليكم جاءني من أجدادنا . فأولاً ادعوكم لأن تكونوا مطيعين للآلهة التي لا ترى وليست من المسادة ، وأن تكرسوا أنفسكم لها روحاً وجسداً ، واحذروا من أن يملأكم الغرور ومن أن تكونوا عنيدين أو ضعفاء أو مترددين وإنما كونوا لطفاء متواضعين وضعوا ثقتكم في الآلهة لكي لا يبلوكم بتجربة لأنه ما من شيء يخفى على أعينهم وهم يعاقبون من يشاؤون . وثانياً يا أبنائي يجب أن تبذلوا جهدكم لتعيشوا بسلام مع جيرانكم وعاملوهم باحترام . وإذا تكلم عنكم أحد بسوء فلا تجيبوه ،

وكونوا لطفاء مع الجميع دون أن تصلوا إلى رفع الكلفة والمزاح . ولا تستغيثوا أحداً ، وكونوا صبورين ، وردوا الشر بالخير ، وستكافئكم الآلهة على ما تحملتم من آلام . وأخيراً يا ابنائي لا تبذروا أموالكم ولا وقتكم لأن كلا الاثنين ثمين . وصلوا إلى الآلهة في كل وقت واستلهموهم وثابروا على ما هو مفيد .

لقد قلت لكم ما يكفي وأثمت واجبي . ولربما نسيتم كلماتي أو لم تعبروها أي اهتمام فهذا شأنكم . أما أنا فقد قمت بما توجب علي ، وليصغ من أراد أن يتبع سبيل الرشاد .



أما في ميدان الفن فإنك الأرتك لم يكونوا فنانيين كباراً . وما وجد من أشياء فنية في وادي مكسيكو وسبب لهم هذا الفخار الذي أسند إليهم كان من صنع من سبقوهم من سكان هذا الوادي . وحتى ما بدا للوهلة الأولى أرتكياً محضاً كفخار المدن المجاورة لمكسيكو لم يكن كذلك في حقيقة الأمر . وقد وجد هذا الفخار CERAMIQUE في شولولا على الأخص ، وهي مدينة مقدسة قديمة تتالت فيها تقاليد التولتيك الفنية . ولكن على الرغم من أن الأرتك لم يكونوا موهوبين في الأصالة ولا في الروح الفنية اللامعة فقد كانوا مهرة بما فيه الكفاية ليحافظوا على التقاليد القديمة في فن النحت وفن العمارة بينما وصلوا في فروع أخرى كصناعة الموزاييك إلى مستوى من الاتقان منقطع النظير . وفي قوائم جرد الغنائم التي نظمها الأسبانوسين ذكرت أشياء منها ما خلفتها الحضارات الكبرى السابقة للأرتك ومنها ما كان لا يزال يصنع في

البلاد عند الفتح . وإليك مثلاً قائمة غير كاملة عن أشياء أرسلت إلى شارل الخامس :

١ - سبيكة ذهبية تزن واحداً وعشرين كنتالاً ونصف الكنتال عندما نقلوها إلى المصهر .

٢ - مرآة دائرية كالشمس وأخرى تحمل رأس أسد وكلها من الذهب .

٣ - عقد كبير يشبه طوقاً من الذهب .

٤ - نايان من الذهب .

٥ - ثلاث وردات من الذهب شبيهات بشجرة الخرشوف ، وردة ذهبية ذات ستة تويجات وست لآلى ذهبية .

٧ - قطعة من (الشالشيوتيل) مرصعة بالذهب وفي داخلها شجرة صغيرة^(١) .

٨ - سلحفاة من الذهب مرصعة بالشالشيوتيل .

٩ - ترس من الذهب مع راية وثلاثة سيقان أشجار مثبتة على وجهها الخلفي .

١٠ - رأس من ذهب وجهه من المرمر (السربنتين) ، ورأس من الحجر الأخضر مرصع بالذهب مع أذنين على هيئة ثعبانين ، ورأس من المرمر مرصع بالذهب مع ريشات ذهبية تتدلى من الأمام .

١ - وجه ميت من الذهب .

١٢ - رأس من المرمر مرصع بالذهب مع أزهار ذهبية . ستة رؤوس لوحوش يختلف بعضها عن بعض وكلها من الذهب .

١ - هكذا جاء العد ناقصاً في الأصل . - للترجم - .

١٣ - تحفة ذهبية ذات خمسة قلوب وإطار من المرمر، وتحفة أخرى مستطيلة مرصعة بالذهب.

١٤ - خمس فراشات ثلاث منها من الذهب والحجر الكريم.

١٥ - ثمانية مغازل مع غزولها وزهرة تستند على زهرة أخرى وكلها من الذهب.

١٦ - تسع ملاعق من الذهب.

١٧ - ثلاثة نمور من الذهب.

١٨ - ست حلقات^(١) من الذهب، وحلقات من العنبر مزينة بالذهب.

١٩ - حروفون من الذهب مع سلسلة ذهبية صغيرة.

وفي قائمة أخرى نجد الأشياء التالي :

١ - ترس كبير مع أقمار من الحجر، فسيفساء (موزاييك) وكثير من الذهب.

٢ - ترس يمثل رجلاً من ذهب وقد فتح صدره للتضحية، وسيل من الدم ينبثق من الجروح. ويضع قواقع من الفضة.

٣ - قبعة من الذهب.

٤ - نسر من الذهب.

وحتى الآن لم نعرف الأتراك من حيث الثقافة إلا مقلدين ووسطاء. ولم يظهروا إلا في ميدان واحد عظماء وأصيلين، وهذا الميدان هو أنهم كانوا مستعمرين ومنشئي امبراطورية، والعبقرية التي كشفوا عنها في هذا المنحى ليس لها ما يوازئها في تاريخ أمريكا الجنوبية الوطنية،

٢ - LABRET ترجمتها حلقة أو خُطام تفرز في الشفة من الجمل أو من بعض الشعوب

البدائية. - المترجم -.

فبعد أن وضعوا أقدامهم في مستنقعات مكسيكو المجذبة ما لبثت المدن أن سقطت أمام هجماتهم واحدة بعد أخرى، وعند وصول الإسبانين كانوا قد انتصروا على عدة محالك، وكانت مملكتهم تمتد ما بين وادي مكسيكو حتى برزخ تيهوانتيبيك ومن المحيط إلى المحيط. وبعد أن بدؤوا تابعين لأحد الزعماء المجاورين أصبحوا المستبدن القساء الذين لا يقهرون وصاروا يفرضون الإتاوات من كل نوع وفي كل مكان.

وكانت المدن الواقعة على ساحل المحيط الهادي ترسل على سبيل المثال ضرائب من الثياب القطنية وأربعة آلاف حزمة من أحسن الريش وأنعمه ومائتي كيس من الكاكاو وأربعين من جلود النمر ومائة وستين طائراً من مختلف الأنواع. أما الزابوتيك في الجنوب فكانوا يرسلون أربعين سبيكة ذهبية ذات حجم محدد وعشرين كيساً من مواد تلوينية. ومن المدن الواقعة على خليج المكسيك كان الأزتك يتلقون الكاكاو والذهب وأربعاً وعشرين حزمة من الريش الفاخر ذي الألوان المختلفة وستة عقود أثنان منها من الزمرد الصافي وأربعة أقل قيمة من ذلك وعشرين من حلق الأذن من العنبر المرصع بالذهب ومائة وعاء مليء بالعنبر السائل وست عشرة حمولة من الكاوتشوك. ومن البلاد الشمالية البعيدة كان يأتي ستائة كيلة من العسل وأربعون جرة كبيرة مليئة بالمغرة من أجل الرسم ومائة وستون مجنة من النحاس وأربعون صحناً مستديراً من الذهب سماتها محددة وعشرة أوزان صغيرة من الفيروز النقي وحمولة من الفيروز الأصفر. وثمة من المدن المفتوحة من كانت تسد ضريبتها من مواد البناء والقصب والحجارة وغير ذلك، بينما تقدم مدن أخرى تجهيزات من مختلف الأدوات اللازمة لقصر الملك. وأما الضرائب الأكثر فقراً فكانت تقدم على شكل ثعابين وعقارب ومخلوقات أخرى ضارة بما في ذلك البراغيث.

والصفة الأكثر تميزاً لهذه الامبراطورية الواسعة كانت في توسعها السريع في المكان وخلال عدد محدود من القرون . وكان المحارب هو الآلة التي استخدمت في ذلك . ومن أجل هذا كان من المناسب ان نختم هذا الفصل بوصف ما كان بالنسبة للأزتك حرباً .

فمنذ أن يكون الأطفال في أطرى عودهم كان الآباء والكهنة يدخلون في أذهانهم أن اسمى القيم في هذه الحياة الدنيا هي الشجاعة والنجاح في ساحة العراك . وكانت حروبهم تذكر دائماً بالحملة الصليبية الدينية . ولا يستطيع الملك نفسه أن يتوج قبل أن يقود حملة عسكرية ويأسر عدداً كبيراً من الأسرى يضحي بهم في أعياد التتويج . وما أن يبلغ الفتى الخامسة عشرة من العمر ويعود من أول معركة له وهو يقود أسيراً حصل عليه بمساعدة من أقرانه حتى يوجه له أبوه مقالة تكاد تكون فظة «يا بني لقد غسلت الشمس والأرض وجددت إيمانك لأن الجراءة وإتتك لأن تأتي بأسير بمساعدة من الآخرين . ولقد كان ينبغي . مع الأسف . أن تترك لرحمة العدو لكي لا تحاول بعد ذلك أن تعتمد على الآخرين . فإذا تكررتك ذلك فإن باقة ستوضع على أذنك الأخرى حتى تشبه البنات . والحقيقة أن من الأفضل لك أن تموت من أن أرى هذا العار يتكرر من جديد» .

وعندما يستشار الشاب على هذا الشكل فإنه لن يتوانى في المستقبل عن أن يعود بكل المفاسخ التي يستطيع أن يحققها . وإذا أتى بثلاثة من الأسرى أصبح من حقه ان يقود فصيلاً ، وإذا عاد بأربعة اسرى أصبح نقيباً (CAPITAINE) وحق له أن يعلق في شففيه حلقات طويلة (LABRETS) وفي أذنيه حلقات من النحاس وعلى رأسه ذوائب لامعة . ويخمس من الأسرى يصل إلى مرتبة «النسر الذي يقود» ويحمل على رأسه ريشة ذات خيوط فضية ويرتدي أردية ذات زينة خاصة .

وتصفه لنا المخطوطات مكلفاً بصلاحيات الكاهن الأكبر عندما يمضي إلى ساحة القتال لإشارة حمية المحاربين وليعطي لأوامره وزناً أثقل . ونستطيع أن نميز زينة مجنّه والأصباغ الموجودة على جسده والدرع الذي يرتديه وشكل شعره والزينات المختلفة التي يسمح للمحاربين بأن يحملوها بحسب عدد الأسرى الذين عادوا بهم من ساحات القتال .

وكانت توجد ثلاث رابطات عسكرية مميزة تكاد تكون مفتوحة أمام كل المحاربين ، وربما كان يوجد منها أكثر من ذلك . فالمتنمون إلى الأولى منها كانوا يسمون «الأمراء» ، والمنتمون إلى الثانية هم «النسور» ، وإلى الثالثة «النمور» . ويتميز أعضاء الأولى بأنهم كانوا يحملون شعوراً معقودة على قمة الرأس برباط أحمر وموزعة على جدائل يتناسب عددها مع عدد ما أحرز المحارب من مآثر . أما النسور فلهم زي خاص بهم يذكر برأس النسر ، وللنمور درع مبرقش كجلد النمر الذي يحملون اسمه .

ويقدم محاربوا الأزت كمشهداً جميلاً عندما يسرون إلى المعركة بدروعهم ومجناتهم المزينة والبستهم اللامعة بينما تشع في الشمس أغلبية رؤوسهم المصنوعة من ريش طير الكيتزال الجميلة وأرديتهم من الريش الأخضر الذي يخالطه خيوط من الذهب ومن التوسيفيتل ، ويلباس ينزل حتى الركب مصنوع من ريش الماكاو الأصفر وموشى بالذهب ، ويعلو كل ذلك قطعة من الذهب مزينة بريش من طائر الكيتزال .

وما أن تعلن الحرب حتى يرسل الجواسيس فوراً للاستطلاع وليدرسوا طبيعة الأرض التي سيقوم الهجوم عليها والموارد التي يعتمد عليها العدو . وما أن تتم الطقوس الدينية التي لا بد منها حتى يتهاى الجميع للمسير . ويمضي الكهنة قبل يوم من الآخرين وهم يحملون الأوثان ثم يتبعهم من بقي من الجيش . وفي أثناء الطريق تسير الأمور

على أتم نظام . وعندما يتم الاقتراب من معسكر العدو يقوم القادة بتعيين الأرض التي يجب أن تحتلها كل فرقة عسكرية . ويتوجه القائد قبل المعركة بخطاب إلى جيوشه مذكراً إياهم بالشرف الذي يعود على أولئك الذين سيخرجون من المعركة ظافرين وناصبين لهم بأن يتطلعوا بثقة إلى هويتزيلوبوشتلي إلههم الكبير .

وفي المعركة نفسها لا يلاحظ وجود سوقية TACTIQUE معينة . فكانوا يحتفظون دائماً بعدد من المحاربين كي يحلوا محل الجرحى أو من يصيهم الإرهاق . ويبدأ النبالون وحملات المقاليح وحملات الخراب برمي قدائفهم ثم يقتربون شيئاً فشيئاً حتى يصبحوا قريبين جداً من العدو ليستعملوا عند ذلك المزاريق والسيوف . وأحياناً يسعون إلى القتال وهم يترجعون ليجروا العدو إلى كمين كان قد أعد من قبل . ولم تكن الغاية من العمليات العسكرية قتل الأعداء وإنما يؤخذ منهم أكبر عدد من الأسرى .

على مثل هذه الحروب قامت عظمة جيش الأزتاك . وهي مهما بلغ بها التنظيم لم تكن تختلف عن الحروب القبلية الكبرى أورشالات الصيد التي كانت تلعب دوراً كبيراً في حياة أغلبية الهنود الذين كانوا يعيشون إلى الشمال من الريبوغراند . ونحن نجد بين قبائل الولايات المتحدة وعلى الأخص في السهوب ملامح هذا المحارب للشالي والتجهيزات القتالية وعادات الحروب . ولكن الترابط الداخلي اختفى واختفى معه لحسن الحظ الهدف الرهيب الشرس الذي كانت من أجله تصنع هذه الأدوات وهو إخضاع الشعوب الأخرى وأخذ الأسرى لتضحياتهم إلى هويتزيلوبوشتلي إله الحروب الكبير . وبقيت من هذه العادات الدعوية عادة واحدة هي انتزاع قلب العدو من بين أحشائه . فهذه السذكرى المخففة عن التضحية التي كانت تقدم فيسما مضى

لهويتزيلو بوشتلي بقيت قائمة بين العديد من القبائل وإلى الشمال حتى كندا.

وبقي بهاء المايا في المكسيك يلمع بسطوع مختلف تماماً وأكثر ضعفاً. فقد تعدل كل شيء، فأضاع الفن أصالته، واختفى المعنى الأول للكتابات المير وغليفية التي تحولت إلى رموز تافهة غير قادرة على الدلالة بشيء من الدقة على التساريخ. وهكذا أخذ الإرث الثقافي يتقلص وينكمش شيئاً فشيئاً، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الانحطاط، فإن حضارة الأزتك التي قامت على التنسيق والتوفيق كانت لا تزال معقدة جداً من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية والفنية حتى ليبدو فظاً بالنسبة إليها كل ما وجد إلى الشمال من المكسيك. ولتذكر أخيراً أن حضارة الأزتك لها من الأهمية ما يتجاوز حدود وجودها لأنها حافظت على أكثر من طقس وأكثر من طريقة للتفكير وأكثر من نظرة مثالية استعيرت كلها من المايا ولكن لم يبق منها لدى المايا أنفسهم أي أثر. وهكذا ينبغي علينا أن نقدر حضارة الأزتك على أنها تعميم لحضارة المايا مع ما يدخل على الحضارة في مثل هذه الحالة من تغيير وتبديل ليس من حدوثهما بُد. وإذا ما وجدنا مشابهاً صارخة بين الأزتك وبين الشعوب الأصلية من سكان الولايات المتحدة فلا ينبغي أن نعزوها إلى نفوذ الأزتك المباشر وإنما إلى واقع أن هذه الشعوب احتفظت هي أيضاً بذكرى دفقات ثقافية عديدة وصلت إليها خلال عصور مختلفة على شكل إشعاعات من غواتيمالا ويوكتان.

ومنذ أن سيطر الأزتك أخذنا نشاهد التفكك المتسارع في إرث المايا الثقافي الذي ما لبث أن أضاع مظهره وجوهره وكل تماسك كان أصيلاً فيه. وقد احتفظت شعوب ما قبل التاريخ في المكسيك الشمالية وفي جنوب غربي الولايات المتحدة على الهنية منه، وربما بقيت فيهم

الروح القديمة التي كانت تنعش العصر الذهبي للمايا، ولكن لم يبق من ذلك لدى الشعوب الحديثة في جنوبي غرب الولايات المتحدة إلا الغلاف. وإذا كنا لا نزال نكشف فيهم عناصر أسامية مما كان يملأ هذا القالب القديم، فإن هذه العناصر أصبح كل منها كياناً قائماً بذاته وأصبح ينتمي إلى تركيبات جديدة ليس لها علاقة بالقالب القديم. وفي كل مكان من الولايات المتحدة نشعر الآن غريزياً بوجود هذه العناصر القديمة، حتى أننا نصل أحياناً إلى اكتشافها مبعثرة مجتثة من أرومتها الأصلية، وهي تحاول أن تتحد مصادفة مع كل ما تلاقيه في الطريق.

الفصل الرابع

سكان بيرو القدماء

في يوم الأحد السادس والعشرين من حزيران يونيه عام ١٥٤١م كانت مدينة ليما الصغيرة تعج بالضجيج بسبب التواطؤ وبسبب المصيبة الشنيعة الوقوع . فقد أوشكت أن تندلع الحرب الأهلية التي ستجتاح البيرو وخلال العديد من السنين ، ذلك لأن الحسد والأحقاد والرغبة في الانتقام بسبب أخطاء حقيقية أو وهمية كانت تقسم الفاعين الإسبان وتقضي على ما بينهم من وحدة الصف . وكان لقرانسوا بيزار المنتصر على الإنكا كل الحق في أن يتنظر من خصومه الجزاء الحق ولكنه كان بعيداً جداً عن أن يساور قلبه ظل من الخوف . وكان يومذاك يتناول وجبة العشاء محاطاً بأصدقائه ولكنه يشعر بضيق شديد بما كان يعتبره ضجة مفرطة في الفناء . ولم يشعر بخطورة هذه الجلبة القائمة في الخارج إلا عندما أسرع واحد من خدمه إلى الغرفة يحمل إليه النبأ بأن جيشاً إسبانياً اقتحم المنزل وهو يصيح «عاش الملك والموت للطاغية» . فشبك عندئذ درعه ونهيا للدفاع . وكانت المعركة قصيرة الأجل التحم

فيها المتصارعون جسداً إلى جسد، فجرح في حلقه وارتمى فغرز المتآمرون سيفاً في جسده. وبينما كان يعاني سكرات الموت صاح «يا يسوع» وهو يرسم شارة الصليب على الأرض وينحني ليقبلها قبل أن يفارق الحياة.

وهكذا انتهى واحد من أشد المغامرين قسوة وفظاظة في التاريخ المعروف. وكان قد كرس حياته للبحث عن الذهب والسلطة. وقد أَرْضَى رغباته ولكن بعد افساد وتدمير حضارة فائقة مثيرة للفضول هي حضارة امبراطورية «أبناء الشمس» إنكا البيرو. فمن هؤلاء وكيف حكموا؟

الذين اجتازوا هذه المنطقة يستطيعون وحدهم أن يكونوا فكرة عن الصعوبات التي قابلتها حكومة البيرو. فهنا تتناوب الصحارى الجافة مع الهضاب العالية التي لا يسكنها هي الأخرى أحد. وكان لا بد لكل محاولة لإقامة وحدة سياسية أن تحسب حساباً للحدود التي يفرضها التشكل الجغرافي للبلاد. وبالإضافة إلى هذه العوائق كانت الوحدة تصطدم بالتباين بين السكان المؤلفين من شعوب تتمثل فيها كل درجات التطور الثقافي بدءاً من أحفاد الحضارات القديمة العليا الذين كان الإنكا قد اندمجوا بهم جزئياً حتى القبائل البدائية الممجية التي كانت تجوب في الشرق. فليس من المستغرب إذن أن يعصر الجندي الشيخ جييزادي ليون على أنه «كان يوجد في بلاد البيرو هذه ثلاث مناطق قاحلة لا يستطيع أن يعيش فيها أحد. أولاهما تشمل غابات جبال الأنديز، وهي غابات وحشية لم يتمكن أن يعيش فيها الإنسان قط. والثانية منطقة جبلية تمتد على طول سلسلة الأنديز وسود فيها برد شديد وتكنسي قممها بالثلج الدائم ولا يستطيع أن يعيش فيها أحد. والثالثة

تشمل الصحارى الرملية حيث لا يمكننا أن نرى إلا تلالاً من الرمال وشمساً محرقة تجفف كل شيء» .

وما بين هذه الصحارى الثلاث كانت توجد مناطق مكتظة بالسكان . فوهاد وخوانق الأند كانت تمتد وتعمق في وديان ضيقة وعميقة لدرجة أن الرياح الباردة لا تصل إليها أبداً . وكان سكان هذه الوديان الخصبة المدهشة أشداء يتمتعون بصحة جيدة . إلا أننا يجب أن نسجل هنا أيضاً ما قاله جيزادي ليون : «في كل مكان ترتفع فيه أجسام من الأشجار كانت الأرض خالية من الرمال وخصبة جداً . وكانت هذه الوديان في الماضي كثيرة السكان ولا يزال يعيش فيها هنود حتى الآن وإن كانوا أقل عدداً مما كانوا عليه في الماضي . وبما أن السماء لا تمطر هنا أبداً فإنهم لم يكونوا يصنعون سقوفاً لبيوتهم كما هي العادة في الجبال ، وإنما ينون بيوتاً كبيرة من اللبن (الأجر المجفف بالشمس) تغطيها حصائر يحنمون بها من الشمس ، وقبل أن يقوموا بزراعة حقولهم حفروا قنوات لري الوديان بمياه الأنهار ، وهي قنوات حسنة الصنع قد بلغت درجة عالية من النظام لدرجة أن كل البلاد كانت تروى دون أن يفرض شيء من الماء . وقد جعل نظام الري هذا من الوديان ودياناً خضراً ذات منظر يسر الناظرين . وكانوا يجنون أفضل المحاصيل في كل وقت من السنة وما ييذرونه من الزراعات الأخرى . وهكذا ، وعلى الرغم من وصفي لبرو بأنها تتشكل من مناطق صحراوية ، فإنها مع ذلك ويحمد الله تحترقها وديان وإنهار لم يكن بالإمكان أن يعيش بدونها إنسان . ولهذا السبب كان من السهل الانتصار على الوطنيين ، فلو أنهم ثاروا لكان مصيرهم الهلاك من البرد ومن الجوع» .

وعلى الرغم من أن هذه الوديان أمكن فتحها بسهولة سواء على يد وطنيين من أبناء البلاد أم على يد البيض الغزاة فإن طبيعة البلاد التي

وصفها لنا جييزادي ليون هذا الوصف الدقيق كانت تقاوم كل محاولة للحكم المركزي . ومع ذلك فإن المركزية السياسية قد تحققت على يد الإنكا فكانت ، بين أشياء أخرى ، سبباً في شهرة إمبراطورية «أبناء الشمس» ، وهو اللقب الذي كان يحمله ملوك البير ومنذ زمن لا تصل إليه الذكريات .

ومع ذلك فإن الحضارة التي صادفها بيزار في بيرو كانت - كما هي الحال لدى الأزتك - قد بنيت على أنقاض حضارة سابقة لها . وأثمن العناصر التي ورثتها كان الاعتقاد بسيادة الشمس الإله الخالق باعث الحياة في كل شيء ، وبتجسده على الأرض في شخص الملك . وكانت الشعوب السابقة للإنكا تسميه باشا كاماك ، بينما سماه الإنكا ويراكوشا ، وإليك الترتيلة التي كانوا يترنمون بها على شرفه :

يا ويراكوشا يا سيد الكون !

سواء كنت رجلاً

أو كنت أنثى

يا سيد الإنجاب

مهيا كان من أمرك

يا سيد الألوهية

أين تقيم ؟

أنت تستطيع أن تعيش في السماء

وتستطيع أن تعيش على هذه الأرض الدنيا

أوربها حول عرشك الباهي وحول صولجانك

ألا فاستمع إلي

من علياء سباتك

هناك حيث يحتمل أن تعيش

يا خالق الكون
أنت يا من صنعت بني البشر
يا سيد الأسياذ
عيناي لم تعودا قريان
لكثرة شوقها إلى معرفتك
عظيمة هي رغبتي في أن أراك
فهل أستطيع أن أراك
هل أستطيع أن أعرفك
هل أستطيع أن أتأملك
هل أستطيع أن أفهمك
ألا فآلق بنظرة عليّ
فأنا أعرفك
الشمس والقمر
والنهار والليل
كلها طوع بنانك
يا ويراكوشا
كلهم يتوجهون
إلى الغاية التي حددتها لهم
بمحض رغبتك
أنت يا من تمسك بالصولجان الملكي
استمع إليّ
وليقل اختيارك عليّ
ولا تسمح أبداً
بأن يرضيني التعب

أو أن ينتصر الموت عليّ.

ومن أجل هذا أقيم أكثر المعابد شهرة في البير وهو معبد كوزكو على شرف هذا الإله الشمس . وقد زاد الملوك المختلفون في إغنائه حتى أن الإنكا أنفسهم كانوا يطلقون عليه اسم «المكان الذهبي» . وقد أكد سارميانتو أحد المؤلفين الجديرين بالتصديق ، وكان قد رآه في عز بهائه وبهالته ، أنه لم يكن يوجد في كل إسبانيا إلا بناءان يمكن أن يضاهياه في الإتقان والكمال . وكان قسمه الداخلي أكثر أبهة أيضاً من مظهره الخارجي . وقد رسم ويراكوشا على الجدار الغربي منه على هيئة انسان وسط كمية غير متناهية من الأشعة المضيئة التي تذهب في كل اتجاه .

ولقد تبارى المؤرخون الأسبانيون في وصف هذا المعبد . ويعتبر الوصف الذي قدمه لنا بريسكوت قطعة جميلة من النثر الإنكليزي : «كانت صورة ويراكوشا محفورة على صفيحة ذهبية سمیكة ذات أبعاد عظيمة ومزينة بالزمرد والأحجار الثمينة . وكانت موضوعة أمام الباب الشرقي الكبير بحيث أن أشعة الفجر الأولى تنعكس على الزينات الذهبية التي كانت تغطي السقف وجميع الجدران . وكان الذهب ، وهو الدموع التي تسكبها الشمس» ، كما يقول سكان بير ووهؤلاء ، يلعب في كل مكان ، كما أن الداخل كله كان يضيء من الصفائح الذهبية الصقيلة ومن المسامير المصنوعة من هذا المعدن الثمين . أما الأفاريز التي تحيط بالهيكل فكانت من المعدن نفسه أيضاً . بينما رُصع الجدار الخارجي بعصابة أو إفريز من الذهب يحيط بكامل البناء» .

وكانت عبادة الشمس قد اخترقت حياتهم وكيانهم حتى الأعماق لدرجة أن الإنكا كانوا ينسبون إليها كل ما هو جميل في الوجود . وبعد فتوحاتهم التي يمكن أن توصف بدون شكل أنها امبريالية عندما كانوا يتكرمون بتسوية الضرائب الباهظة التي كانوا يفرضونها على الشعوب

المغلوبة كانوا يذكرونهم بأنهم «أبناء الشمس» الذين يمنون عليهم بإحسان . وقد ترك لنا غارسيلا سودي لافيغا الذي ينتسب هو نفسه إلى العائلة المالكة الإسبانية لائحة المبادئ التالية منسوبة إلى واحد من الإنكا حيث قال :

«إعلم أن هذه المنطقة كانت كلها في الماضي مغطاة بالغابات والحراج وأن الناس كانوا يعيشون فيها كما تعيش الوحوش بدون دين ولا حكومة ولا مدن ولا بيوت ، ومن غير أن يزرعوا الأرض أو يلبسوا الثياب لأنهم لم يكونوا يعرفون أن ينسجوا قطعاً ولا صوفاً . . وعندما رأى أبونا الشمس هذا الجنس من بني الإنسان في مثل هذا الشقاء تأثر وأخذته الشفقة بهم والرحمة فأرسل ابنه وابنته من السماء إلى الأرض ليتخذهم الناس إلهين لهم وليعلمهم الآداب والقوانين التي بها يستطيعون العيش أناساً عاقلين ومتحضرين ، وليتعلموا السكنى في البيوت والمدن وزراعة الذرة والنباتات الأخرى والاعتناء بالقطعان واستعمال ثمار الأرض ككائنات عاقلة ولكي لا يعيشوا بعد ذلك كما تعيش السوائم . من أجل هذه الغاية أنزل أبونا الشمس ولديه فوق بحيرة تيتيكاكا طالباً منها أن يذهباً حيث شاء وأن يزرعاً الأرض حيثما توقفاً من أجل أن يأكلوا ويناموا وأعطاهما صولجاناً ذهبياً طوله نصف متر وسمكه إصبعان . وقد أعطاهما هذه العصا ليعلم أن رغبة أبينا الشمس هي في أن يستقروا حيث تنفرز في الأرض من ضربة واحدة وأن ينشئوا في ذلك المكان بلاطهما . وأخيراً قال لهما : «وعندما يصبح هؤلاء الناس خدماً لكما فإنكما ستسهران على أن يحرصوا على العدالة والتعقل ، وعلى أن يكونوا أتقياء ، متسامحين ولطفاء ، وستصرفان معهم كما يتصرف الأب الحنون تجاه أبنائه الذين يجب . وهكذا ستكونان ظلي وصداي . فأنا محسن للكون كله أنشر الضياء لير الناس ولينجزوا ما عليهم من مهمات . أدفئهم من برد

وأغذي مراعيهم ومحاصيلهم وأنضج ثمارهم وأضاعف قطعانهم وأغسل أرضهم بالندى وأتيهم بالطقس الجميل والموسم الحسن، وأتم في كل يوم دورتي حول الأرض لأعرف ما يحتاجه الناس وأظهر سلطتي على المحسن والمسيء. وإنني لأرغب في أن تسير على خطاي، لأنني أرسلتكما إلى الأرض يا ولدي لتقوما على إسعاد وثقيف هؤلاء الناس الذين يعيشون كالحیوانات. وإنني سأسميكما منذ هذه اللحظة ملوكاً وأسياداً على كل هذه القبائل لتعلماهم الحكمة وطيب الحكم».

فمن أية طبيعة إذن كان هذا الحكم الذي سوغ نفسه بتلك الطريقة العصرية العصرية؟ لقد كانت دولة اشتراكية تيوقراطية ليس لها ما يشبهها بعد مصر القديمة. وعلى العكس من الأزتک فإن الإنکا لم ينجحوا فقط في التغلب على الشعوب الغريبة وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك بأن نزعوا منهم استقلالهم وكسروا فيهم كل روح للمقاومة وأدججهم إدماجاً كاملاً في الدولة الجديدة. ولم يكن الأزتک قادرين على ذلك إلا في حالة مدينة واحدة وخلال فترة قصيرة سبقت الفتح الإسباني للبلاد.

على رأس الدولة كان يوجد الملك الإله الذي يحمل لقب الإنکا لا أكثر من ذلك. وكان يفصل عن رعاياه بهوة ليس لها قرار. ولكن بينما كانت الدولة من الناحية الرسمية دولة استبدادية محضة فإننا لا نعتقد بأن الإنکا كان يملك هذه السلطة التعسفية التي جرت العادة بأن نلصقها بالطفلة الأوروبية أو الآسيوية. إلا أنه بصفته رئيساً مدنياً ودينياً وعسكرياً ويفضل سموه الإلهي فإن قدرته تبدو من غير حدود وتبدو كل السلطة متمركزة بين يديه. ويؤكد قدماء المؤرخين بأنه كان يجيش الجيوش ويقودها غالباً بنفسه ويفرض الضرائب ويعين القضاة المكلفين

بتنفيذ هذه القوانين ، وبالاختصار فإنه كان مصدر كل سلطة ومرجع كل كسب .

وكان مظهره الخارجي وبلاطه متناغمين مع أصله الإلهي ، ولذلك كانت الطريقة الوحيدة التي يلجأ إليها الإنكا للاتصال بشعبة هي أن يقوم برحلة رسمية في أنحاء مملكته .

وعندما كان الإنكا^(١) في أوقات السلم يزورون المقاطعات في امبراطوريتهم فانهم كانوا يسافرون بكل مظاهر الفخامة وهم جالسون على محفات نفيسة تحملها عوارض من الخشب الثمين طويلة ومغطاة بتكفيتات من الذهب والفضة . ويعملو المحفة قوسان كبيران من الذهب تزينهما الأحجار الثمينة وسجف طويلة تغطي المحفة من كل جانب . فإذا أراد الإنكا أن يكون متوارياً عن الأنظار بقيت السجف مسدلة ولا تكشف إلا عند الدخول والخروج . ومن أجل أن يرى الطريق ويستشق الهواء العليل صنعت ثقب في هذه السجف وزينت أحسن زينة . فعلى بعض هذه السجف طُرزت الشمس والقمر وطرزت على بعضها الآخر ثعابين ملتوية يفصل بينها ما يبدو أنه عصي كانوا يحملونها شعارات أو أسلحة . وكانت هذه المحفات تحمل على أكتاف أكبر سادة المملكة ، ومن كان منهم يشابر على هذه المهمة التي كانت تعتبر منة كبرى كان ينال أعلى مراتب الشرف .

وكانت المحفة محاطة بالحرس الملكي والرماة وحاملي البلطات الطويلة الساق . وكان يتقدمهم خمسة آلاف من رماة المقاليع ومن جنود مسلحين بالحرايب . وعلى جانبي الطريق وعلى الطريق نفسه يقوم

١ - جرت العادة أن يطلق لفظ «إنكاه» على الملك وعلى مجموعة الملوك وعلى الشعب الخاضع لهؤلاء الملوك في الوقت نفسه . - المترجم

سعاة مجربون بالرصد ويخبرون عن تقدم موكب الملك . وكان سيل كبير من السكان يأتي لرؤية موكب السلطان لدرجة أن التلال كلها كانت تغطي بالمشاهدين . وكان الجميع يباركون مليكهم بإطلاق الصياح وترديد العبارة المعتادة في مثل هذه الأحوال : «أيها السيد الكبير القادر ابن الشمس أنت مولانا والعالم كله تحت طاعتك» . ويضيف المؤرخ إلى ذلك أن الناس كانوا يضيفون إلى هذه العبارة عبارات أخرى وأنه لا يستبعد أنهم كانوا يعبدون الإنكا على أنه إله .

وفق كل ذلك كان هنالك هنود يسبقون الحاشية كي ينظفوا الطريق من الأعشاب والحجارة ويجعلوه نظيفاً أملس . وكان الإنكا يقطع المسافة التي تعجبه في كل يوم وهي تبلغ بوجه عام ما يقارب العشرين كيلومتراً . وكان يستريح في بعض الأماكن ليتابع أحوال البلاد ويصغي بطيب خاطر لمن يريد أن يعرض عليه شكواه معاقباً المخطئين وراداً الحق للمظلومين .

وكان الملك في أنظار الجميع ماهية خاصة وجوهرأ يختلف عن كل ما عداه . وهو يحكم رعاياه من عل سواء كانوا نبلاء أو وضيعين . وكان مرغماً على أن يتزوج من أسرته المباشرة ، وكانت أخته الشقيقة هي زوجته الرسمية على الدوام .

ومع ذلك ، وعلى الرغم مما يبدو من مظاهره ، فإن سلطة الإنكا لم تكن مطلقة . فكما هو الأمر بالنسب للكثير من الأنظمة البيروقراطية كانت الدولة محكومة بموظفين حسب نظام تسلسلي حسن التنظيم وحسن التطبيق . وما كان يعطي الملك سلطته وتفوقه هو أن الأعباء الهامة في المملكة وبخاصة المراكز الدينية العليا كانت بيد أقربائه المباشرين الذين كان يمارس عليهم بطبيعة الحال رقابة كبيرة . ومع ذلك

فإنه لم يكن هو - ولم يدع ذلك أحد - من يعهد إليهم بهذه المراكز، وإنما كانوا ينالونها بموجب القانون .

وعلى الرغم من أن الملك كان من الناحية النظرية رئيس الكنيسة فإنه كان في الواقع يعهد بسلطاته لأشخاص يتم اختيارهم اختياراً خاصاً لهذه المهمة . فالكاهن الأكبر كان أخاه ويأتي مباشرة في الأهمية بعده وهو الذي يقوم بتعيين مساعديه . وبما أن المراكز الدينية العليا ينبغي أن تكون من نصيب العائلة المالكة فلا بد أن تكون الكلمة الأخيرة في كل أمر يتصل بالدين والطقوس منوطة بالملك وأقربائه المباشرين . وكانت سلطة الكهنة محدودة بعض الشيء ومحصورة فقط بقضايا الطقوس . ولم يكن الإشراف الذي تمارسه العائلة المالكة على الكنيسة يزيد فقط في سلطتها السياسية وإنما يساهم أيضاً في رفع هيبتها وما كان يحيط بها من احترام .

أما المجتمع لدى الإنكا فكان يعتمد على نظام للطبقات شديد وحاسم ويتألف من النبلاء ومن العامة الذين لا ينبغي لهم أن يعدوا اتحادات فيما بينهم . وكان النبلاء ينقسمون إلى طبقتين متميزتين هما أفراد العائلة المالكة ورؤساء الأمم التي أخضعتهم وكل ما تناسل منهم من أحفاد . أما المركزية الشديدة التي كانت إحدى المميزات الأكثر إثارة للدهشة في حكومة الإنكا فقد كان مردها أن كل الموظفين المهمين مع قائد الجيوش وقواد الحاميات البعيدة وحكام المقاطعات كانوا من أفراد العائلة المالكة أو يرتبطون بها ، وكانوا مجبرين بقدر الإمكان على أن تكون معيشتهم في البلاط .

ولم يكن يعهد إلى النبلاء من الطبقة الثانية إلا وظائف ذات أهمية ثانوية ، كما أن سلطتهم كانت محلية جداً ومحدودة في مقاطعاتهم التي عاش فيها أجدادهم وهو تدبير عاقل جداً في الواقع ويفضله أمكن

المحافظة على القليل من الاستقلال المحلي الذي بقي في هذه المقاطعات على يد أناس كانوا يجيدون معرفة البلاد وكانت سلطتهم تلقى أقل ممانعة ممكنة من جانب الشعوب المهزومة . ولكي لا يتمكن هؤلاء الزعماء المحليون من الإفلات من قبضة السلطة الملكية فإنهم كانوا ملزمين بأن يزوروا العاصمة بين حين وحين .

وكانت المملكة بدافع إداري ونبعاً لتقسيم قديم تنقسم إلى أربع مقاطعات ، وكذلك كان الأمر في مدينة كوسكو أيضاً . وكانت أربعة طرق تصل بين العاصمة المركزية ومراكز هذه المقاطعات . وعلى كل من هذه المقاطعات كان يحكم حاكم هو جزء لا يتجزأ من حاشية الملك المباشرة . وكانت كل مقاطعة تنقسم بدورها إلى أربع مديريات CANTONS عدد سكان كل منها عشرة آلاف من السكان وعلى رأسها نائب للمحاكم ينتمي هو الآخر إلى طبقة النبلاء . ثم يقسم السكان في النهاية إلى وحدات كل منها يتألف من ألف إنسان أو خمسمائة أو مائة أو خمسين تدار بطريق التسلسل على يد موظفين . ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نوغل في البير وقراطية بأكثر مما رأيناه في هذا النظام .

وقد أبدى الإنكا العبقريّة التنظيمية نفسها في توزيعهم لموارد البلاد . فقد قسمت أراضي المملكة إلى ثلاثة أقسام ، فكانت عائدات القسم الأول تغطي النفقات الكبيرة التي تتطلبها عبادة الشمس وما يلحق بها من كهنة عديدين . وتخصص عائدات القسم الثاني للعائلة المالكة ولكل طبقة النبلاء . وأخيراً فإن عائدات القسم الثالث كانت تعود إلى بقية الشعب . وكانت الأرض المخصصة لشعب تقسم بدورها إلى قطع صغيرة تختلف مساحتها بحسب حاجة كل عائلة . وكان على

كل بيري^(٢) أن يتزوج في سن محددة، وكسان يتلقى في هذه المناسبة مسكناً وقطعة من الأرض تكفي لتغذيته هو وزوجته . وعندما يولد له أولاد تزداد حصته بحيث يكون للذكر من أبنائه مثل حظ الأنثيين . ومن أجل أن يكون هذا التنظيم مجدياً كانت الأراضي يعاد توزيعها من جديد في كل عام وتزداد أو تنقص الأملاك المخصصة لكل فرد بحسب حجم عائلته .

وكسنت الأرض تزرع من قبل العامة فقط وبحسب نظام للتعاقد محدد . مثال ذلك أنهم يلدؤون بزراعة أراضي الشمس ، أي الأراضي المخصصة للكنيسة . ومنها ينتقلون إلى أراضي العجائز فأراضي المرضى فالأرامل فالأيتام فالجنود الغائبين ، ثم يلي ذلك زراعة الأراضي التي يمتلكها الأفراد ، وأخيراً ينتقلون لزراعة أراضي الإنكا . وكسان ثمة أنظمة شديدة مشابهة تطبق على صناعات الإمبراطورية الأخرى كتربية القطعان من اللاما وصناعة النسيج واستثمار المناجم وتنفيذ الأشغال العامة الكبرى . . إلى غير ذلك . فتربية اللاما مثلاً كانت موضوعاً لرعاية خاصة . وكان حراس القطعان يتمتعون بحياة أكثر حرية من حياة أولئك الذين يعيشون في المناطق الأكثر اعتدالاً من إمبراطورية الإنكا ذات المناخات المختلفة . وقد ترك لنا أحد قدماء المؤرخين الإسبان هو أونديغارديو وصفاً جميلاً لهذه الحياة التي كان يمارسها هؤلاء الرعاة فكتب يقول :

« كان ثمة عدد من القواعد تختص بالقطعان بعضها حكيم للدرجة أنه لا يزال يصلح للتطبيق حتى اليوم . ويمكننا القول إن الناس في قسم كبير من المملكة كانوا يعيشون من قطعانهم التي كانت ترتعي في

٢ - البيري هو الموطن الذي ينتمي الى بيرو - المترجم

المناطق الأكثر برودة من البلاد، وهناك استقرار الهنود كما في منطقة الكالآو CALLAO وعلى السفوح التي تنحدر نحو أريكيبا AREQUIPA ونحو الساحل في المناطق التي تسمى كارنكاس وأولاغاس وكيلاواس وكولاهواس. وكان يمكن لهذه المناطق أن تكون غير مسكونة لولا القطعان، ذلك لأنها على الرغم من قدرتها على تقديم عدة محاصيل إلا أن من عاداتها ألا تنتج خلال ثلاث سنوات من أصل كل خمس، وليس بالإمكان الاعتماد على غيرها، ولكن القطعان هي التي جعلت الناس أكثر ثروة ومكتهم من أن يلبسوا خيراً مما يفعل أمثالهم ممن يعيشون في المناطق الخصبة. وهم يتمتعون بصحة جيدة وقراهم أكثر سكاناً من قرى الأراضي الدفيئة، لأن هؤلاء الأخيرين يقتصرون على محاصيلهم الخاصة بينما ينزل الرعاة قطعانهم وصوفهم إلى الوديان ثم يعودون إلى ديارهم محملين بما يحتاجونه من الذرة الصفراء.

وبعد جز اللاما كان الصوف بوضع في مستودعات عامة ثم يوزع على العائلات لكل عائلة بحسب احتياجاتها. وعند ذلك يبدؤون بالغزل والنسيج. ويتم في العاصمة تقرير الكمية التي يجب أن تنسج ونوعية النسيج ويتوزع على مختلف المقاطعات ما ألزمت به من مهمات. وبما أنه من الضروري أن يعهد بكل تفصيل من تفاصيل عملية النسيج إلى الأيدي الخبيرة بها فقد كان يتم تعيين موظفين يكلفون بالسهر على سلامة الإنتاج. وكان هؤلاء يدخلون حتى إلى البيوت الخاصة للتأكد من أن كل عائلة تقوم باستعمال المواد التي قدمت لها استعمالاً حسناً وبالطريقة المقررة وأن أي مكان لا تنقصه المادة الأولية اللازمة لهذه الصناعة.

ومن البديهي أنه من أجل تنفيذ هذه المشاريع تنفيذاً حسناً بحيث يشغل كل إنسان المكان المحدد له ويقوم بالمهمة الدقيقة الموكلة إليه لا

بد من أن يكون ثمة كشف احصائي دقيق للسكان . وكانوا يحصلون على ذلك بتسجيلهم كل الولادات وكل الوفيات في البلاد . ومن جهة أخرى فإن موظفين من العاصمة كانوا يجوبون دائماً في المناطق المختلفة لدراسة طبيعة الأرض ومدى خصوبتها ومنتجاتها، وهكذا كانت الحكومة المركزية تستطيع أن تقدر كمية المواد المطلوبة والعمل الذي يمكنهم أن يطلبوه من المقاطعات ليكون الإنتاج كماً وكيفاً على خير ما يتنظر منه .

وكانت الوسيلة الوحيدة المعروفة للتدوين هي طريقة «العقد» الشهيرة التي توضع في حبال حيرت المؤرخين الإسبانيين الأوائل ردحا من الزمان . وكانت الكيبو QUIPU (أي ذات العقد) تتألف دائماً من حبل رئيسي ترتبط به حبال جانبية صغيرة كأنها أهداب توزع على مجموعات يضم كل منها بصورة عامة المجموع نفسه من العقد . وكانت ترتبط بالحبال الرئيسية حبال ثانوية يتولد منها تفرعات أخرى على كل واحد منها أهداب معقودة . ولا تظهر العقد إلا على الحبال الجانبية (أو الأهداب) وتكون على أنواع مختلفة . والرئيسي منها هو العقدة البسيطة التي نعد منها على الحبل الجانبية حتى خمس عقد أُويزيد، وبعدها تأتي عقدة طويلة أو عقدة فلمندية . ولكل من هذه العقد بحسب نموذجها ووضعها قيمة عددية . فالعقد الفلمندية تمثل الأعداد واحد وعشرة ومائة . والعقدة الطويلة العدد عشرة أو مائة ، والعقدة البسيطة عشرة ومائة وألف وعشرة آلاف . وفي واحدة من هذه الكيبوسات (ذوات العقد) كانت العقد في الصف الأسفل منها تستخدم للأحاد، وعقد الصف الأعلى تستخدم للعشرات ، و صف آخر كانت تدل عقده على المئات ، وآخر أيضاً تدل عقده الى الآلاف . وكانت هذه الحبال الصغيرة غالباً ذات ألوان مختلفة .

وكان يعتقد حتى ذلك الوقت أن الكيوسات انها تستعمل من أجل التعدادات العادية فحسب، ولكن عالماً معروفاً لاحظ حديثاً أن مما لا شك فيه أن البير بين ربما استخدموها تقاويم تدل على السنة الشمسية ومدة الدورات الاقترانية لكوكب الزهرة التي كان يعرفها الملايا، كما تدل أيضاً على الدورات الاقترانية لكوكب المريخ.

ويؤكد أونديغاردورجل القانون الاسباني المشهور الذي ندين له بمعظم معلوماتنا عن التنظيم الاجتماعي لدولة الإنكا أن شيئاً لم يكن يترك للمصادفة في هذه الدولة المذكورة. فتوزيع الأعمال مثلاً كان يقع على عاتق السلطات المحلية التي كانت تسهر بكل عناية على استعمال الكفاءات وعلى ألا يكلف انسان بها لا يتناسب مع كفاءته من عمل.

ولم يكن يحمل أي تفصيل. فعلى كل انسان أن يجتهد بقدر طاقته في إنجاز المهمة التي أوكلت اليه على خير وجه. وكان معظم البيريين الذين ينتمون إلى الطبقة الدينا من المزارعين، أما الذين أسندت اليهم أعمال التعدين أو أصبحوا حرفيين فكانوا يعفون من زراعة الأرض.

ومع ذلك، فإذا كان على كل انسان أن يعمل فانه لم يكن يكلف بها لا يطبق. ولم يكن أحد يقدم لخدمة الدولة إلا جزءاً من وقته ثم يأتي غيره ليحل محله. وأخيراً فإن هذه الخدمة لم تكن تؤثر على الأعمال العادية للفرد بأية صورة من الصور أو تنال من ثروة العائلة. فكل الذين كانوا يسهمون في المشاريع العامة كانوا مع عائلاتهم تحت رعاية الدولة.

وكما كانت الامبراطورية الرومانية كانت امبراطورية الإنكا تجتازها شبكة رائعة من الطرق وأقنية المياه والجسور والحصون القائمة على النقاط الهامة. ولم يؤثر شيء في الفاتحين الإسبان مثلما أثرت طرق الإنكا. وكان أشهرها وما لاقي بناؤه أعظم الصعوبات هو الطريق

الذاهب من كيتو QUITO إلى كوزكو CUZCO ومن كوزكو إلى شيلي .
وقد ترك لنا نائب الملك الإسباني وصفاً جليلاً لهذه الطرق الوطنية .

وقد بني أطول هذه الطرقات بدءاً من عهد الإنكا ويراكوشا .
ومن أجل تنفيذ مبدأ أن كل فرسخ يغطيه اثنان من السعاة بنيت على
طول الطريق بيوت صغيرة من الخشب والقش يصبح سقفها مدعوماً
بالحجارة في المناطق الجبلية . وكان يسكن في كل واحد من هذه البيوت
بناء على أوامر الإنكا اثنان من الهنود مجهزان بالمؤن تتعهد بإرسالهما
القرى المجاورة . ولم يكونا يعيشان فيه بصورة دائمة وإنما كان يتبدلان
من وقت لآخر . وكان النظام الحكومي من القوة بحيث أنه كان يكفي
إصدار هذا الأمر حتى يطبق ويوجد الرجال فيما خصص لهما من
مكان .

وكانت كل ولاية مكلفة برعاية المراكز الموجودة ضمن حدودها
بدءاً من صحارى الساحل حتى حقول الجليد في الجبال . وعندما
يستدعي الأمر إبلاغ السلطات في كوزو أو غيرها بحدث أمر من الأمور
أن أن ينقل إليها خبر من الأخبار كان رجال هذه المراكز من السعاة
يذهبون من كيتو أو توميبامبا أو شيلي أو كارانكي أو أية نقطة من نقاط
الإمبراطورية على الساحل أو فوق الجبال فيركضون بأقصى سرعتهم دون
توقف بحيث يغطي الواحد منهم نصف فرسخ أو ما يوازي اثنين ونصف
من الكيلومترات تقريباً ، وكانوا يختارون دائماً من أسرع الرجال ، فإذا
أصبح الواحد منهم على مرأى المركز التالي ينذر من كان فيه بالعبارات
التالية : «امض فوراً وانقل للمركز التالي كذا وكذا من الأخبار» ، فيقوم
الآخر لدى تلقي هذا النداء بالجري فوراً بينما يدخل الأول إلى المركز
ليستريح ويتناول طعامه من المؤن التي كانت موجودة دائماً في المستودع .

وهكذا كانت الأخبار تصل إلى الإنكا أو إلى حاكم الولاية في أقرب وقت .

وكان هذا النظام من الكمال بحيث أنهم كانوا يعلمون بما يجري أو بما يحتاجون معرفته من مسافات تصل إلى ثلاثمائة أو خمسمائة أوريبا ثمانمائة فرسخ وفي أقصر مدة ممكنة .

وكانت إحدى هذه الطرق تحتاز الهضاب العالية بينما كانت طريق ثانية تتبع سهول الساحل الواطئة . وبما أن الأولى تأثرت بطبيعة الأرض فإن بناءها كان بالغ الصعوبة ، إذ كان عليها أن تخترق سلاسل الجبال الشديدة الانحدار والمغطاة بالجليد ، وأن تحفر عمراً في الصخر قد يصل طولها إلى عدة فراسخ ، أو تبني على الأنهار جسوراً تتأرجح فوق الهاوية ، أو تنحت لها سلاسل على شرف الجبال القائمة ، أو عملاً الفتحات العميقة بأدوات بناء متينة ، وبالاختصار أن تتغلب على كل العوائق التي تقدمها منطقة وحشية وعرة لا يقدم على التعامل معها أكثر المهندسين المعاصرين جرأة ، ومع ذلك فإن البيريين الشجعان المهرة تغلبوا على كل هذه الصعوبات . ويقدر طول هذه الطريق التي لم يبق منها إلا أجزاء منعزلة ما بين ٢٤٠٠ - ٣٢٠٠ كم على وجه التقريب . وكانت تنتصب على طولها صوى من الحجارة على مسافات محددة تبلغ الواحدة منها ما يقرب من الخمسة كيلومترات أو أكثر بقليل وكانها حدود عسكرية . ولم يكن يتجاوز عرض الطريق ستة أمتار . وقد بنيت من حجارة مربعة سميكة مغطاة في بعض الأماكن بملاط إسفلتي أصبح مع مرور الأيام أقسى من الحجارة نفسها .

أما الطريق الثانية فكانت تحتاز السهول التي تفصل جبال الأند عن المحيط . وكانت مبنية بطريقة مختلفة تماماً بحسب ما كانت تتطلبه طبيعة الأرض التي كانت بصفة عامة واطئة ورملية . وكانت الطريق عند

إنشائها تُرفع بركامات ترابية تدعم من طرفيها بحاجز من الطين . وعلى طرفي الطريق زرعوا الأشجار والدغلات ذات الرائحة الزكية لثمتع بشذاها أنوف المسافرين وتلطّف من تعب الطريق بما تفيء من ظلال . وفي المناطق الصحراوية الرملية حيث الأرض خفيفة متحركة لا تستطيع أن تتحمل ثقل الطريق المعبدة كانت تخرز في الأرض كتل حجرية لتدل على الطريق التي ينبغي اتباعها .

وعلى طول هذه الطرق أقيمت خانات AUBERGES أو تامبوس TAMBOS كما كانوا يسمونها على مسافات منتظمة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين كيلومتراً لإيواء الإنكايوجـه خاص هو وحاشيته وإيواء المسافرين بمهمات رسمية أيضاً . ولم يكن ثمة في الواقع من سبب للسفر في بيرو إلا إذا كان الدافع مثل هذه الأعمال الرسمية . وكانت بعض هذه الأبنية ضخمة وتتألف من حصن ونجيات ومنشآت عسكرية أخرى ويحيط بها جميعاً سور من الحجر يمتد على مسافة كبيرة . فهنا بدون شك كانت تقيم الجيوش الإمبراطورية عندما كانت تحتاز البلاد . وكانت المحافظة على هذه الطرق تقع على عاتق المناطق الإدارية المجاورة حيث يعمل عدد كبير من العمال بصفة دائمة بإصلاحها ، ولم يكن ذلك صعباً ولا معقداً على كل حال في بلد يسافر فيه الجميع على الأقدام . وتدل الجسور المعلقة في البيرو على إقدام وجراة متناهيين . وكانت تبنى من ألياف المنغا والسوحر (نوع من الصفصاف) الشديدة المقاومة . فكانت ألياف السوحر تضم على شكل حبال ضخمة يصل سمكها إلى سمك جسد الإنسان وترمى فوق الماء ، ثم تُدخل نهاياتها في قوب منقورة في نواتىء صخرية على طرفي النهر وتربط ربطاً شديداً بكتل من الخشب الثقيل . وكان الجسر يتألف من عدد من هذه الحبال

الضخمة مربوطة بعضها مع بعض ومغطاة بالواح من الخشب ويحصرها من الجانبين حاجزان من السوحر من أجل حماية المسافرين .
على هذه الطرق وبواسطة هذه الجسور كان البيريون يتواصلون دائماً وينقلون السلع من كل نوع . وعندما قام أحد المكتشفين الحديثين بتتبع بقايا هذه الطرق القديمة التي حافظت على بقائها بحافظة حسنة تمكن وعلى غير توقع منه أن يكتشف أطلال مدينة رائعة محصنة هي مدينة ماتشو- بيتشو . ولندع المكتشف نفسه - الدكتور بينغهام - يروي لنا كيف تم ذلك :

«عندما تركنا حصن أولانتايتامبو العتيق ونزلنا إلى الوادي على طريق حكومية بنيت حديثاً دخلنا في خائق جبلي غريب . . ولم يكن هذا الخائق يتمثل لنا فقط بقمم مكسوة بالثلج وأجراف من الغرائب وغابة استوائية كثيفة جداً ، وإنما أيضاً بآثار معمارية تركها لنا جنس قد أصبح في عداد الأموات . وفي كل مكان كانت تسمح به الأجراف كانت الأرض تمتد على مدرجات بين جدران الاستناد وبين النهر . ولم يتمكن قدماء السكان هنا أن ينتزعوا كل بوصة صالحة للزراعة من النهر إلا بعد لاي شديد . . وعلى صخرة ذات منحدرات شاقولية لا يمكن الوصول إليها كانت جدران محكمة من الحجر تقوي النقاط الضعيفة بحيث أن المدافعين عن الوادي يستطيعون من أعالي هذا النشز أن يدرجوا كتلاً من الحجارة على المهاجمين دون أن يتعرضوا لأخطار الهجوم .

والطريق الذي تتبع في معظمها مخططاً قديماً كانت في بعض أجزائها محفورة بحفر عميقة وفي أماكن أخرى كان ينبغي المغامرة فوق بوارز هشة تستند إلى صخور شديدة الانحدار . . وقد وجب علينا أن نتسلق عبر غابة وعرة ثم فوق سفح يكاد يكون شاقولياً . وباستثناء كوخ وبعض المدرجات المدعومة بجدران من الحجارة لم يكن في الوهلة

الأولى أي أثر للخرائب . . ولكننا بعد أن نلنا بعض الراحة تقدمنا حتى حافة القمة .

وعندئذ ، وبعد أن كاد المسافرون يفقدون أي أمل ، شاهدوا في وسط إحدى الغابات الاستوائية وفي ظل أشجارها بقية جدران عتيقة وأنقاضاً على شكل كتل من الغرانيت سوي بعضها بعناية فائقة كمثيلاتها من تحف البناء التي خلفتها حضارة الإنكا . وهكذا اكتشف هؤلاء الرحالة ماتشو - بيتشو مدينة الغيوم الحقيقية .

فما هو الدور الذي لعبته هذه المدينة المنيعه ؟ . لقد كانت بصورة خاصة مكاناً للاعتصام محصناً من العدو من أية ناحية أتت . وقد يمكن مع ذلك أن تكون وراءه قصة رومانسية أو أن يكون مهداً لامبراطورية الإنكا . والواقع أن هذا المهد كما وصلتنا أخباره من رواية شفوية قديمة كان يقع في أحد خوائق الأند المنيعه في مكان يسمى «مسكن النوافذ» . والنوافذ هي الملامح الأساسية في هندسة بناء هذه المدينة ، أفليس من الممكن أن تكون ماتشو - بيتشو إذن مجرد اسم آخر أطلق على مدينة «مسكن النوافذ» المقدسة ؟ . على أن من العبث في الوقت الحاضر أن نصل إلى حل في هذه المشكلة الغامضة ، والنقطة المؤكدة هي أن نمط بناء ماتشو - بيتشو هو من الإنكا على الرغم من وجود بعض الاختلافات بينه وبين نمط كوزكو والمناطق الأخرى النموذجية من أبنية الإنكا . ومن البديهي أن الإنكا لا بد مروا هنا قبل أن تقوم امبراطوريتهم ، وربما كان ذلك في عصر لم يكونوا يحلمون فيه بعد بالإنجازات الكبرى التي سيكونون من صنعها .

تلك هي حكومة الإنكا في خطوطها الرئيسية . ومن أجل أن نتم اللوحة بقي علينا أن نصف كيف كانت أرض العدو بعد الفتح تدمج في الإمبراطورية الفاتحة . ولنبداً بالناحية الدينية . فقد كانوا يدخلون عبادة

الشمس ويقيمون لها المعابد ويعهدون بها إلى طبقة من رجال الدين ذات عدد كبير تقع على عاتقها مهمة الدعوة إلى الدين الجديد بين الشعوب المغلوبة . والتدبير الثاني ديني أيضاً . فقد كانت صور آلهة الشعوب المغلوبة ترسل إلى كوزكو حيث توضع في المعابد ويستطيع كل إنسان أن يقدم لها لاحترام على أساس أنها آلهة أدنى . وبعد ذلك كانوا يقومون بإحصاء للسكان ويحرون للمنطقة دراسة اقتصادية . وكانت البلاد تقسم بحسب مبادئ مطبقة في جميع أنحاء المملكة . إلا أنه مهما كان شأن التغيرات التي تدخل على الشكل القديم فإن الثروات تبقى دائماً في أيدي الملاكين القداماء ، كما تبقى العادات القديمة والقوانين التي كانت سائدة لدى الشعوب المغلوبة بصورة عامة دون مساس .

أما إذا كان الأمر يتعلق بمنطقة أخضعت وظنوا أنها ما زالت تحمل لهم الكراهية والعداء فانهم كانوا يلجؤون إلى نظام فيه شيء من القسوة . فكانوا ينقلون الآلاف من سكانها إلى مكان بعيد من المملكة يشعرون فيه أنهم غرباء تماماً وبحيث أن الحسد والبغضاء المتبادلين تقضي على كل محاولة للتمرد . وكانت هذه المستعمرات الأجنبية تلعب دوراً هاماً في حياة الإنكا الاجتماعية . وفي هذه المستعمرات كان يوجد ثلاث فئات ، أفراد الفئة الأولى كان يعملون في الزراعة خاصة ثم في الصناعة ، وكان عليهم أن يهتموا بالدرجة الأولى بتأمين حاجات جيوش الإنكا التي هي جيوش الشمس ، على أنه كان يوجد بينهم نساجون وصاغة ونحاتون وصانعو أصنام وقالعو حجارة . أما أفراد الفئة الثانية فكانوا يخدمون في مختلف الحاميات الموزعة في البلاد . وأما أفراد الفئة الثالثة فكانوا مستعمرين COLONS (أي أنهم كانوا يخصصون لاستعمار أراض جديدة) . وكان انتقلوهم يتم بكسل عناية دون أن يكلفوا بها يرهقهم من الأعباء . وكانوا ينقلون دائماً إلى وديان خصبة لم

تكن مأهولة من قبل . وكان الرؤساء يحرصون دائماً على أن يُنقل هؤلاء المستعمرون الذين تم انتقاؤهم من أفراد الشعب المغلوب إلى مناخ مشابه للمناخ الذي كانوا قد اعتادوا عليه . وكانت المنطقة الجديدة تقسم بين هؤلاء المستعمرين وتقدم لهم القطعان والمؤن التي يمكن أن تكفيهم حتى يتمكنوا من جني محاصيلهم . ومن أجل أن يخففوا من حزنهم العائش بقدر المستطاع فإنهم كانوا يعفونهم من الضريبة خلال عدد من السنين .

وأخيراً ، فمن أجل ألا يتعرض نظام الإدماج الذي كانوا يطبقونه لأي فشل كان الإنكا يجبرون رؤساء العائلات من الشعوب المغلوبة على الإقامة في كوزكو ويحرصون على تعليمهم لغة العاصمة وعادات أسلافهم الجدد فيتمتعون بذلك بامتياز أنهم مقبولون في البلاط وأنهم يعيشون في جو من البذخ الذي كان يحيط بالسلطان . وكانت اللغة الرسمية تفرض فرضاً قاطعاً على الشعب المغلوب ، ومن أجل هذه الغاية كان المعلمون يرسلون إلى كل القرى والمدن في المناطق المفتوحة . على أنه مهما كان رائعاً نموذج التنظيم الاجتماعي الذي لجأ إليه الإنكا فأننا لا نجهل أن ادعاءاتهم بأصالة فيه لم يرقم عليها دليل وأنها إنسيا تقوم على أساس من تبجحهم كفاتحين . كما أن الإنكا في كل مجالات الفنون أيضاً كانوا مستعيرين أو مقلدين تقليداً غير ناضج في أفضل الحالات ، بحيث أن ما أقاموه من أعمال فنية لا يقوى على الصمود في وجه ما أقامه أسلافهم الكبار ، أي في وجه الحضارات التي امتدت من برزخ باناما حتى شمالي شيلي .

والنموذجان الأكثر أهمية من فنه في البناء والنحت ربما كان أولهما الباب والمسلات الحجرية الضخمة التي وجدت في تياواناكو في الطرف الجنوبي من بحير تيتيكاكا ، وثانيهما المسلة التي يلحقونها بحصن شافان

دي هوانتار الوطني البعيد إلى الشمال من تياهوواناكوا. والأفاريز المنحوتة على مسلات تياهوواناكوليس لها مثل في كل أمريكا، فواحد من الوجوه المنحوتة عليها يشير انتباهاً خاصاً لأنه يمثل شكلاً إنسانياً ذا ساقين مختصرين ورأس محاط بأشعة محدة بدوائر وبرؤوس لأسود أمريكية، وأطراف قميصه وأكمامه مزينة هي الأخرى برؤوس لهذه الأسود، ويحمل على صدره زينة لها شكل حيواني مقوس على شكل هلال، ويمسك في كل واحدة من يديه عصاً نحت طرفها على شكل رأس نسر أمريكي CONDOR

ويقدم لنا جويس العالم المعروف والمختص في موضوع الأركيولوجيا البيرثية وصفاً لائقاً لهذه المسلات الحجرية فيقول: «تبعد المسلات الكبرى في وضعها الحالي خمسة أمتار بعضها عن بعض وتذكرنا بالدوائر الحجرية الموجودة في أوروبا. ومع ذلك فإن التنقيبات الحديثة أظهرت أنها كانت مرتبطة مع بعضها بجدار من الحجارة الكبيرة التي لم يكن يربط ما بينها ملاط، وأنهم كانوا يجتازون هذا الجدار إلى الداخل عن طريق سلم ذي درجات حجرية يقع في وسط الجانب الشرقي. وفي داخل هذا المكان المسور يوجد منخفض في الباحة مستطيل الشكل هو الذي يؤدي هذا السلم إليه. وأمامه إلى الشرق من الباحة الكبرى يوجد مكان مسور آخر أصغر حجماً ومبني على الطريقة نفسها ولكن مع رؤوس بشعة منحوتة بشكل بارز على الأعمدة التي تسند الجدار. وإلى الغرب من الباحة الكبرى يوجد مكان مسور ثالث متوسط الحجم له جدار مزدوج. وفي الزاوية الشمالية الغربية منه يرتفع بناء صغير ذو ثلاث مقصورات صغيرة تشبه صوامع الرهبان. ثم يأتي أخيراً مكانان مسوران آخران أصغر حجماً ومجهزان بأقنية حجرية..

وفي الزاوية الشمالية الغربية من الباحة الكبرى يرتفع الباب الحجري الشهير الذي يعتبر أعظم الأبنية الأثرية في كل أمريكا القديمة.

أما في ميدان النحت وأشغال الذهب والنحاس والبرونز والفخار والنسيج فإن المستوى الفني ينخفض بدخول الإنكا إلى مسرح الحضارة. وكل ما سيأتي في الصفحات التالية ويمتد إلى فن البيرو فإنها يعود إلى الحضارات السابقة للإنكا أكثر مما ينطبق على إبداع الإنكا الذين ورثوا هذه الحضارات.

ولقد كان النحاس هو الأكثر استعمالاً بين المعادن. وكانوا يصنعون منه كل الأشياء وبخاصة الأدوات الكثيرة الاستعمال. وقد عرفوا البرونز وصنعوه بإضافة كميات مختلفة من القصدير إلى النحاس. ولكن أجمل ما صنعوه من البرونز أو النحاس من أدوات جميلة بدت، سواء في مهارة صناعتها أو في تزييناتها، هزيلة إلى جانب ما صنعوه من الذهب أو الفضة. وقد استخرج المنقبون في هذه السنوات الأخيرة من المقابر كثيراً من الأشياء الذهبية كان من بينها ما يحتوي على أربعين ليبرة من الذهب وآخر على مائتين وثالث على أربعمائة. وكانت هذه الأشياء على أشكال تحقق كل ما يتصوره الخيال من أقراص وحلق للأذان وأساوير وأجراس وتيجان وتروس ومزامير ذات أنواع مختلفة ونحوها دائرية وأوان نصف كروية وأوعية من مختلف الحجم. وقد وصف لنا العالم الفرنسي الشهير بول ريفي واحدة من هذه المصنوعات المدهشة فقال:

«برز لنا على أرض القبر هيكل عظمي وجدنا عليه كمية كبيرة من صفائح الذهب والفضة كانت تتناوب بانتظام كامل بحيث بدا لنا أنها كانت مثبتة بدون أي ظل من الشك على رداء ألقى فوق جسد هذا الميت. ولا بد أن قطع هذا الرداء نفسه كانت هي الأخرى مصنوعة من

قطع صغيرة من الذهب . وفي المدخل تم اكتشاف حزمة كبيرة من قضبان صنعت من خشب الشونثا مكفنة ومغطاة برقائق من الذهب والفضة . ومن أجل أن تغلق فتحة القبر تماماً وضعت هذه الحزمة بشكل عمودي متناوبة مع أربع حزم أخرى دائرية الشكل اثنتان منها من الذهب واثنان من الفضة ويتراوح سمكها ما بين أربعين إلى خمسين سنتيمتراً . وخلف الهيكل العظمي كان يوجد كنز حقيقي مؤلف من دبائيس وبلطات ومزامير وقمائل صغيرة وكل ذلك من الذهب . وأكثر الأشياء روعة كان ريشة صنع أنبوبها من الذهب وأهدابها من الفضة . وفي قبر آخر وجدت صفيحة واقية للمصدر من الذهب عليها كثير من الزينات . أما سطحها فمحدب يارتفع أكثر من سنتيمتر ، وأما حافتها فملساء تبرز من أحد جوانبها صفيحة دائرية صغيرة يربطها - ملك بثلاث حلقات مفرغة .

وقد استغرق الفاتحون الأسبانيون استغراقاً كاملاً في إذابة ما حصلوا عليه من تحف وأصابهم مس لكثرة ما حسبوا أثمنها بالنسبة للمعايير الأوروبية حتى أنهم لم يتركوا لنا وصفاً مفصلاً لكل ما وصل اليهم من هذه التحف . ومع ذلك وصلت إلينا بعض التفاصيل . فقد رأى المؤرخ أوفيسدو عدداً من هذه الأنية الرائعة الصنع والمرصعة بكثرة بذهب صاف والتي يبلغ ارتفاعها ثلاثين سنتيمتراً ومحيطها خمسة وسبعين . وهناك مؤرخون آخرون ذكروا أقداحاً وأباريق وأطباقاً وحلياً ومواعين للمعابد والقصور الملكية وأجراً وصفائح لتزيين المباني العامة وتقليدات للنباتات والحيوانات . وإليك وصفاً جميلاً لعرنوس من الدرة الصفراء : كان العرنوس نفسه من الذهب كله ، وكان مغطى بأوراق عريضة من الفضة تخرج منها حزمة جميلة من الخيوط المصنوعة هي الأخرى من الفضة أيضاً . ويدعي البعض - وربما كانوا يقولون الحق -

أنهم رأوا بركة ماء مصنوعة من الذهب تنبثق منها حزمة ذهبية لامعة تمثل الماء بينما تلعب في قاعها طيور وحيوانات صيغت من المعدن نفسه .

ومع ذلك فإن سكان بير والقدماء إنما وصلوا إلى الكمال في فن الخزف والنسيج وفي هذا المجال بوجه خاص عرفوا واشتهروا . والأشياء المختلفة التي يمكن ترتيبها بحسب درجة قدمها تنبئ عن اختلافات مميزة في الأسلوب تبعاً للعصور المختلفة التي صنعت فيها . فالأسلوب المسمى بأسلوب تياهوواناكو يتميز بتزييناته المرسومة التي تستعمل الكثير من الألوان . وهناك أسلوب قريب من أسلوب تياهوواناكو ولكنه يختلف عنه بالأوان الآنية وبخاصة الأحمر والأبيض والأسود . وأخيراً يأتي عصر الخزف الأسود الذي يتفوق بصنعبته ولكنه يبقى بها لا يدع مجالاً للشك أدنى من حيث الجاؤه الفني . وأخيراً يأتي عصر الإنكا .

وكان كل من هذه الأساليب يميل إلى معالجة بعض المواضيع ويفضلها على غيرها . ولكننا إذا اعتبرنا مجموع الخزف البيري فأننا نستطيع أن نؤكد أن هذا الفن قلما تفوقت عليه فنون شعوب أخرى بما في ذلك الإغريق والصينيون فيما يتعلق باتقان العمل الفني وتنوع المواضيع وأصالتها ، بل ربما لم يتفوق عليه قط فن واحد من هذه الشعوب . يضاف إلى ذلك أنه يرسم لنا لوحة كاملة للحضارة البيرية القديمة ، فكل نبات وكل حيوان وكل نموذج للثياب أو السكنى أو الزينات أو أنماط المعيشة المختلفة وكل التفاصيل المرتبطة بالطقوس والآلهة وحتى الأمراض ، كل ذلك تم تمثيله إما نافرأ أو مرسوماً .

ونحن نعتقد من وجهة نظرنا أن الأمثلة الأكثر أهمية هي بطبيعة الحال تلك التي تمثل مشاهد من الحياة البيرية . ويقدم لنا أحد الآنية تمثيلاً لتضحية فيرينا الكاهن ومساعديه والضحية مع شخصية تجلس القرفصاء إلى اليمين . ويرينا إناء آخر عبداً أعمى ذا جسد مشوه يلعب

على الطلبة بينما يرقص أولئك الذين سجنوه على نغم آلة صوتية . وعلى إناء آخر أيضاً نرى حبلاً من الناس قدموا لتقديم احترامهم للإنكا ، وقد مُثل هذا جالساً في بيت مبني على طبقات بينما يصعد السلام ساعيان يتبعهما شخص ربما كان زعيم قبيلة مغلوبة . وهناك شخص آخر أدنى منه مرتبة بلا شك يتبعه على محفة ذات حامل عادي . بينما الرتبة الأدنى من الزعيم الثالث قد مُيزت بحبل كان يحمله صاحب الرتبة هذا حول عنقه . وعلى إناء رابع مُثل مشهد صيد حيث اجتذب الأيل إلى شبكة أخذوا يقتلونه فيها بواسطة هراوات وحراپ . وأخيراً من أجل أن نعطي فكرة عن تنوع هذه المواضيع لابد أن ننوه بوعاء يمكن أن نميز عليه نباتات من الأسل مع جذورها بينما تسبح الأسماك بين هذه الأسلات وتحلق فوقها الطيور .

وتقدم لنا هذه الأنية تنوعاً في الأشكال أيضاً . وأكثرها لفتاً للنظر تلك (الأنية - اللوحات) التي لا يحصى لها عدد . فهي تعطينا فكرة حية جداً عن عصر هؤلاء الناس بدءاً من الإنكا والنبلاء حتى آخر واحد من العبيد . وعلى هذه الأنية لم يهمل وجه واحد من أوجه الحياة التي كان يعيشها هؤلاء الناس . فهنا وهناك يمكننا أن نلاحظ حتى مشاهد من الجراحة والطب الوطنيين منها مشهد لرجل مبتورة مع غطاء يستر ما بقي منها بعد القطع ، أو مشهد رجل يتفحص أخص قدمه بعد أن استخرجت منه بعض البثور .

والكمال الذي وصل إليه البيريون في فن النسيج ربما كان ادعى إلى الدهشة أيضاً . ونحن لسنا هنا فقط أمام تطور خارق في هذا الفن بالنسبة لما نعرفه عنه لدى شعوب ما قبل التاريخ وإنما نحن هنا أيضاً أمام تناغم الألوان وجمال الصباغة ونوعها وأخيراً كمال الغزل والنسيج مما يجعل هذه الأنسجة على مستوى يمكن معه مقارنتها بمشيلاتها من

الأنسجة التي تنتجها شعوب أوروبا أو آسيا . ويبدو أنهم في العصور الأولى لم يكونوا يتقنون هذه المهنة . فقد كانوا يشدون السداة في إطار بينما كانت خيوط اللحم تؤخذ باليد بواسطة إبر خشبية يمر من كل منها خيط فولون مختلف ، وهكذا كانت الزينة في خطوطها الرئيسية تتوافق مع اللحم والسداة وتتألف من أرضيات مختلفة الألوان . ثم عرفوا بعد ذلك طرائق مختلفة للتزيين ، كان يطرزوا النسيج بعد نسجه ، أو أن يرسموا عليه ، أو أن يغمسوه في مادة تلوينية بعد أن يربطوا بعض أجزائه كي لا تنفذ إليها المادة الملونة . وفي مرات أخرى كانت الألبسة تتألف من مجموعة من القطع صُبغت كل منها على حدة بحيث يتألف من مجموعها نماذج متناسقة .

أما المواضيع التي صورت على هذه الأنسجة فهي أقل تنوعاً عما رسم على المصنوعات الخزفية . وبصورة عامة كان الأمر يتعلق بمواضيع هندسية أو ذات أشكال حيوانية على أننا نجد في بعضها مشاهد من الحياة اليومية .

ويبقى لنا بعد ذلك أن نشير إلى عادة بيرية أخيرة كانت واسعة الانتشار هي عادة تحنيط الموتى . فقد كان قدماء الإنكا يتصورون فيها وراء القبر حياة كاملة كما كان يفعل قدام المصريين . فكانوا يضعون مع الميت أغذية وملابس وأنسجة وأسلحة حتى أنهم كانوا يضعون معه الحيوانات المفضلة لديه في حياته . وكان النبلاء وأفراد الطبقة العليا يأخذون معهم زوجاتهم المفضلات وعدداً من الخدم كانوا يدفنون معهم ساعة الدفن . وكانت الجثة بصورة عامة تُعد لهذا المصير على عدة طرائق ، وبعد أن تنزع منها الأعضاء الداخلية كانت توضع في القبر في وضعية القرفصاء وعليها كمية سميكة من الأنسجة ثم تغطى بغطاء رقيق من نسيج قطني وأخيراً يغطى الجميع بحصير محكمة الشد بواسطة

خيطة . وكانت موميات ملوك الإنكا تحفظ في كوزكو في معبد الشمس وتوضع على كراسٍ ذهبية على طول الجدران بحيث تكون كلها في مواجهة صورة الشمس . وعلى الرغم من أنها سُرقَت سرّاً أثناء الفتح إلا أنها اكتشفت في النهاية . وقد كتب كارسيلاسو واصفاً : «لقد كانت الأجساد في حالتها الكاملة حتى أنها كانت لا تزال تحتفظ بالشعر والحواجب والأجفان . وكانت لا تزال تلبس الملابس التي كانت قد ارتدتها في حياتها ، ولم تنبأ - باستثناء الناج على الرأس - بأية شارة من شارات الملك . وكانت في وضعية الجلوس ، الذراعان مشبكاً على الصدر، الأيمن منها فوق الأيسر ، والعينان مطاطتان وكأنهما تنظران إلى الأرض» .

وكما كان الأمر مع الأزتِك فإن الإنكا استعاروا أكثر من عنصر ثقافي من أسلافهم تاركين إياه في معظم الأحوال ليفسد دون أن يصلحوه أو يحسنوا من أمره . ومع ذلك فإن اسم الإنكا كان براقاً لدرجة أن الأركيولوجيين لم يتمكنوا أن يشبّثوا إلا أخيراً وبشكل رسمي كيف كان قليلاً حقّ الإنكا في معظم التحف الفنية التي نسبت إليهم . فنحن نعرف الآن سلسلة المراحل الثقافية الطويلة التي مرت على بيرو القديمة . وثمة نقطة أكثر أهمية من ذلك أيضاً هي أننا نستطيع حالياً أن نحدد المؤثرات المتبادلة التي مارستها كل من حضارتي المايا والإنكا أحدهما في الأخرى . وعلى الرغم أن من الخطأ الادعاء بأن الحضارات الكبرى التي ازدهرت على ساحل المحيط الهادي من أمريكا الجنوبية إنما استمدت أصولها من مؤثرات مكسيكية فإن من المؤكد مع ذلك أن المراحل الأكثر قدماً من هذه الحضارات إنما تعدلت بتأثير من هذا الاتجاه وأن هذه المؤثرات يبدو أنها كانت أقوى وأكثر دواماً في الإكوادور منها في المناطق التي تمتد إلى الجنوب من ذلك .

ومع ذلك قشمة عنصر بقي ثابتا خلال كل هذه المراحل هو عبادة الشمس والصفة المقدسة للإنكا ابن الشمس . ولذلك كان الابتهاال الذي يرفعه كاهن الشمس خلال احتفالات آب أغسطس الكبرى في مدينة كوزكو، كانت صلاة موجهة في أن واحد من المغلوبين والمتصرين، من العبيد والنبلاء، وكانت قديمة جدا تعود بالتأكيد إلى أكثر من ألف عام :

أيها الخالق ! يا ويراكوشا، أيها المنتصر الكلي الوجود .

أنت يا من لا نظير لك، يا من تسيطر على أقدار الأرض .

أنت يا من أعطيت للرجل حياته وقيمه وأنت تقول :

فليكن هذا رجلاً

وللأنثى تقول :

فلتكن هذه امرأة

أنت يا من خلقتهم وأعطيتهم الوجود،

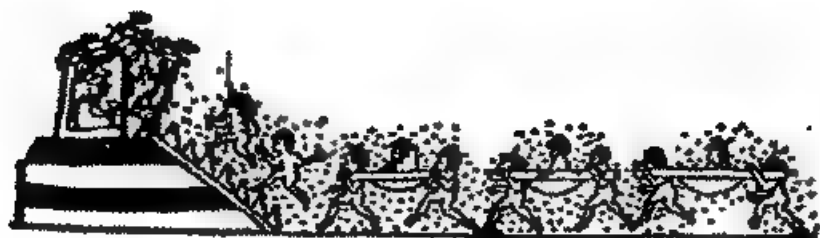
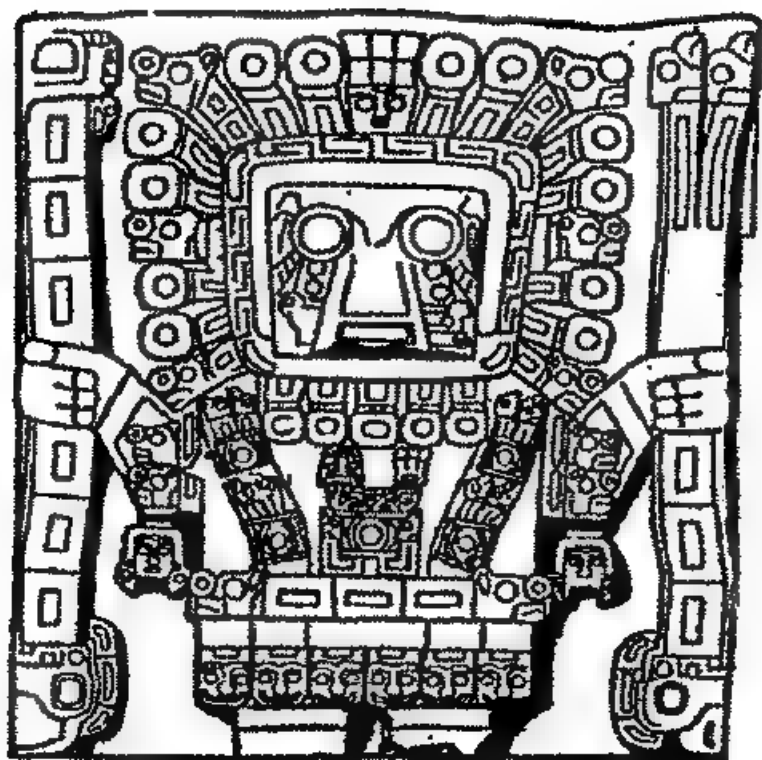
أنت يا من تقيم في عليائك هنالك في السماوات،

بين غيوم العاصفة،

امنحهم حياة طويلة

واقبل هذه التضحية

أيها الإله الخالق العظيم .



الفصل الخامس

المكسيكيون يفتحون أمريكا الشمالية

عندما ألقى الجنرال وينفيلد سكوت مراسيه في فيراكروز أثناء حرب المكسيك ومشى إلى مدينة مكسيكو فإنه تبع الطريق نفسها التي كان قد تبعها كورتيز قبل ذلك بثلاثة قرون . وكان كورتيز قد قدم من كوبا ، ومن توباسكو التي تقع على مسافة قريبة من ميناء بويرتو مكسيكو الصغيرة الحالي تبع الشاطئ حتى المكان الذي بنى فيه هونفسيه مرفأ فيراكروز . ولم يكن هو أول من استخدم هذه الطرقات الوطنية ، ففي نحو من عام ١٠٠ ق . م ، أي قبل قرون عديدة من زمنه ، كانت قد مرت جيوش الغزاة القادمين من يوكاتان وغواتيمالا وشيابا وعن هذه الطرق وصل المايا بدورهم أيضاً .

ولقد كان المايا في كل العصور جنساً قلقاً لا يستقر له قرار إذ طامحوا هجروا في بلادهم نفسها غواتيمالا ويوكاتان المدينة تلو الأخرى . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع بطبيعة الحال أن نغزو ذلك إلى سبب وحيد فإنه من المحتمل - إذا ما استطعنا أن نخترق حجب الظلام التي تخفي

تاريخ المايا القديم - أن توصل إلى سبب أصبح اليوم واضحاً هو أن شعوباً همجية كانت تضغط عليهم من كل الجهات وتهاجمهم عند كل فرصة تسنح لها وتمتصهم شيئاً فشيئاً. ومن المعروف أن أعلى أشكال الحضارة لم تستطع قط أن تصمد أمام عدوين محييين هما الجميع والعباءة العذراء. وكان المايا أقل من غيرهم كفاءة في مجال الدفاع، ذلك لأنهم على تقدمهم في مجال الفن وبعض العلوم فإن حضارتهم كانت تشكو من نقيصتين أساسيتين هما أولاً فقدان الوحدة والترابط السياسيين وثانياً المركزية المشؤومة التي كانت تعاني منها كل المعارف وربطها ربطاً ضيقاً بطبقة الكهنوت.

ولكن إذا انتهى الأمر بالغابات والبرابرة الهمجيين إلى أن يوقفوا فجأة حضارة المايا فإنهم لم يتمكنوا من تدميرها تدميراً كاملاً، ذلك لأنه كان من الممكن أن يتخلص المايا من تأثير الغابة، كما أن البرابرة كان لابد من أن يفقدوا همجيتهم بشعورهم بدفع هذه الثقافة العالية، وهكذا كان لهذه الحضارة بدورها طريقته الخاصة في مهاجمة خصومها الوريثيين. فعندما تبقى المعركة المباشرة خاسرة يمكن اللجوء إلى اختراق بطيء وعتيد لصفوف الأعداء، ذلك لأن الدفاع الحازم والطويل المدى سيكون في حد ذاته نوعاً المجوم، وعندما دارت الدائرة في النهاية على المايا، وأصبحت اللعبة خاسرة تماماً فإن حضارتهم رزحت تحت وطأة القبائل البربرية، ولكنها كانت قد نفذت إليهم وامتصوا جزءاً كبيراً من إرثها الثقافي.

ولكي نفهم كيف تمكن المايا من فتح المكسيك ثم الولايات المتحدة الأمريكية فإن علينا أن نعرف أولاً كيف تمكنوا من مقاومة الغابة ثم بأية صورة لعبوا دور الخميرة بين البرابرة الذين كانوا يحيطون بهم مدعومين في بعض الأحيان بالخط لذي قيامهم بهجوم مباشر.

وما ان وصلوا الى ساحل خليج المكسيك حتى تمتعوا بأمان نسبي، فليس من المستغرب إذن أن يحاولوا بلوغ هذا الشريط الضيق من الأرض الذي نسميه برزخ تيهوانتيبيك. وكان بإمكانهم أن يبلغوه عن طريقين، فإما بالتوغل في المناطق المدارية الجبلية كم منطقة شيايا وإما بالتوجه مباشرة نحو الخليج وهو الطريق الأسهل كثيراً بين الطريقين. فوجود لغة المايا المسماة هواكستيك بعيداً إلى الشمال من فيراكروز ليس إذن أمراً مدهشاً، ولكن ثقافة المايا كما عرفناها في يوكاتان وغواتيمالا قد تعدلت آنذاك كثيراً إلا إذا كان الهواكستيك يمثلون مرحلة قديمة من مراحل حضارة المايا. ويبدو أن النظرية الأولى هي الأقرب إلى الصحة لأننا نشهد تفككاً حقيقياً في عناصر المايا كلما ابتعدنا عن يوكاتان الشمالية وتقدمنا نحو تاباسكو وفيراكروز، وكانت تزدهر إلى الجنوب قليلاً من الهواكستيك فيما مضى حضارة التوتوناك التي تظهر تشابهات عميقة مع حضارة المايا. وكانت لغة التوتوناك إما لهجة من لهجات المايا عدلت كثيراً وإما لغة أخرى مختلفة ولكنها تبنت الكثير من مفردات المايا.

وهكذا يمكننا أن نعتبر أن هجوم المايا المباشر نجح غالباً حتى فيراكروز في الشمال. فهل كان ذلك بفضل غياب الأعداء أمامهم أو لأن مقاومة هؤلاء كانت غير مجدية؟. إننا نجهل الجواب على ذلك. وكل ما نعرفه أن المايا الذين استقروا هناك أنشؤوا مدناً وحافظوا على لغتهم وعلى العناصر الأقل هشاشة من إرثهم الثقافي القديم. أما الكتابة الهيرغليفية وأما المدن الرائعة مع مبانيها العامة ومعابدها الفاخرة ومسلاتها الحجرية فقد اختفت كلها إلى الأبد. وأما زراعة الذرة مع كل نتائجها، والديانة القديمة والأساطير العتيقة والاطرار الاجتماعي القديم فقد بقيت كلها سليمة دون مساس.

ومع ذلك فإن الآثار لا تلبث أن تنقطع فجأة إلى الشمال من
فيراكروز، فماذا حدث؟ .

هل أصبح ضغط القبائل البربرية قوياً جداً أو أن هؤلاء دمروا
كل شيء؟ .

إن معظم المؤرخين يفضلون تجنب هذه المشكلة وترك المسألة
معلقة دون جواب . وربما كان تصرفهم هذا تصرف العاقلين . ولكن
يبدو أنهم ضلوا مع ذلك وراء آثار خاطيء في بحثهم عن امتداد هذه
المؤثرات الأولى للمايا في المنطقة التي تمتد إلى الشمال من فيراكروز
واستحوذت عليهم فكرة خاطئة بتتبع آثار هذه الحضارة على الطرق
البربرية الموجودة هناك . أما الآن وبعد أن كشفت المناطق الممتدة بين
فيراكروز وغالفنستون كشفاً جغرافياً كاملاً أصبحنا نعرف أنه ليس
بمقدور أحد أن يخترقها وأن يجتازها . فمن أجل أن نمر الآن من تاميكو
أو فيراكروز إلى غالفنستون وأورلثان الجديدة لابد لنا من استعمال
المراكب . ويبدو أن سكان فيراكروز القدماء كانوا يفعلون مثلنا .
والواقع أن الآثار التي انقطعت فجأة إلى الشمال من فيراكروز لا تلبث
أن تظهر على القسم الأدنى من الميسيسيبي ، فعلى هذا النهر الكبير
وعلى الضفة الشرقية منه بوجه أخص وحتى الأطلسي يتفتح كل ما كان
موجوداً من حضارة المايا إلى الشمال من ريوغراند . ويمكننا أن نسمي
هذه الشعوب هنا باسم ينساء «الماوند»^(١٥) . وعلى الرغم من أن ثقافة
هؤلاء الأخيرين تشير إلى تفهقر ملموس عما عرفه الهواكستيك فإن

* - الماوند MOUNDS هي التلال الاصطناعية التي تخفي تحتها آثار حضارة قديمة .

الترجم

مجرد وجودها هنا هو أمر معجز. وقد لعبت الذرة دائماً دوراً من الطراز الأول، وبني العديد من الأهرامات، أما الآلهة فعلى الرغم من أن أوصافهم تراخت بعض الشيء فقد بقوا في جوهرهم كما كانوا ولم يتبدل التنظيم الاجتماعي في خطوطه الكبرى قط.

وهكذا أتت من البحر أول غزوة عرفت لها الولايات المتحدة وتوغلت عن طريق المسيحي أبي الأنهار المهيّب. فالمااء لعب إذن في هذه الغزوة دوراً مدهشاً. والواقع أن حضارة المايا التي وصلت إلى الولايات المتحدة تعدلت كثيراً باجتيازها خليج المكسيك، وقد أثر هذا التعديل بشكل لامرأ في كل الحضارة الوطنية إلى الشمال من ريوغرانده.

ولكن لنعد إلى القسم من المايا الذين فضلوا السيل البري نحوهم رغبة في أن يصلوا عن طريقه إلى ساحل الأطلسي. فهنا لا بد أن الغزوات قد بدأت في عصر مبكر وكانت مستمرة ودؤوبة. ولا شك أن أوائلها قد تمت على نطاق واسع، ذلك لأنها على الرغم من عدم نجاحها في فرض لغة المايا فإنها كادت أن تنشر كل مظاهر ثقافتهم بها في ذلك كتابتهم المير وغليفية التي تغيرت وفسدت خلال الطريق إلى حد بعيد. ولقد حدث أننا عرفنا جيداً هذه المرحلة من تقدمهم نحو الشمال لأنها أرست قواعد حضارة هامة هي حضارة الزابوتيك ZAPOTEQUES والميكستيك MIXTÉQUES في ولاية واكساكا OAXACA إلى الجنوب من المكسيك.

ولقد كادت حضارة هذه الشعوب أن تكون تيوقراطية تماماً كما كانت حضارة المايا. فقد كان للميكستيك كاهن أكبر كانت سلطته مساوية لسلطة الملك. وكانت هذه الوظيفة الوراثية تسند دائماً إلى بعض أفراد العائلة المالكة. وكان الكهنة يخضعون لرهبانية شديدة

بحيث كانوا طوال هذه الحقبة يحافظون على عذرية مطلقة إلى أبعد الحدود، أما الكهنة العاديون فكانوا يستطيعون الزواج بعد أربع سنوات من بدء دخولهم في السلك، وكان يسمح لمن يشاء منهم بأن يحتفظ بحياة الرهبنة إذا رغب بذلك، ومن بين هؤلاء الأخيرين كان يتم اختيار أصحاب المقامات الرفيعة الذين كانوا يحيطون بالملك، وكان المرشح لوراثة العرش نفسه خاضعاً لأن يمر بهذه الرهبنة.

وكان الملك وكبير الكهنة يحنطان بعد الموت ويدفن جسداهما في كهوف مقدسة يوجد منها أعداد كبيرة في بلاد الهسواكستيك HUAXTÈQUES . وكانت هذه الموميات توضع على مصاطب حجرية منحوتة في الصخر، كما كانت الأضرحة تضم أيضاً في مكان منها تماثيل الإله الحامي للملك وللکاهن الكبير.

أما لدى الزابوتيك فالملك كان هو الكاهن الأكبر والسلطان في الوقت نفسه . وقد أخبرنا مؤلف قديم بأن الاحترام الذي يكنونه له كان كبيراً لدرجة أنهم لم يكونوا يتركون قدميه تسان الأرض قط . وإذا اعترض بعض الناس طريقه مصادفة فإنهم كانوا يرمون بأنفسهم على الأرض حالاً لأنهم كانوا يفضلون الموت عن أن يروا مجرد ظل جلالتهم . أما كبار الدولة أنفسهم فكانوا في حضرته يغمضون الطرف إلى الأرض وهم مكشوفو الرؤوس .

وكان للزابوتيك نسقان من الكهنة الأعلى منها يقتصر المتمون إليه في الظاهر إلى طبقة النبلاء والأدنى الذي يضم الكثيرين من الطبقات الأدنى . وربما كان أكثر هؤلاء الكهنة الصغار أهمية هم المكلفين بالعرافة وتفسير النبوءات . وكانت أساليب العرافة كثيرة ومتنوعة، فمنها ما كان عن طريق النار أو الماء أو زجر الطيور أو أحشاء الحيوانات التي تمت تضحيتها . . . الخ، وبعض الكهنة كانوا

يتمسكون بنقش كامل ويمضون حياتهم في الوحدة والتأمل عائشين في أكواخ خشنة ويسحبون الدم من أجسادهم ليقدموه إلى آلهتهم الخاصة.

وقد قسمت البلاد عند الميكستيك والزابوتيك الى أقسام إدارية يحكمها رؤساء ثانويون يرتبطون مباشرة بالملك ويقدمون له الجزية. والأرض التي لم يكن لأحد أن يتصرف بها انتقلت ملكيتها الى سلاطات من الذكور وصار الاثنان يعملون عليها تحت رقابة مباشرة من موظفين خصوصيين. أما التجار فقد كانوا يشكلون - كما هو أمرهم في أمريكا الوسطى والمكسيك - طبقة مميزة تحتل مكانتها الخاصة بها، وكانوا مغولين في بعض المقاطعات أن يتزاجوا من نساء الطبقة العليا.

وكان الزابوتيك يمتازون بميزة خاصة بهم هي اعتقادهم بإله أعلى كانت تطلق عليه مجموعة من الأسماء على ما يبدو. ومن بين الآلهة الهامة عندهم يمكننا أن نذكر «خالق كل الحيوانات» و«خالق بني الإنسان والأسماك». وإله الأرض، وهو إله غامض شيدت له المعابد الأكثر قداسة وكان الزابوتيك يطلقون عليه لقب «قلب المملكة». وهناك إله المطر وإله المحاصيل وإله التجار والثروات وآلهة الفقر والشهرة والأحلام والعالم السفلي. . . إلى غير ذلك. . . ولا نجد أية إشارة الى عبادة الشمس. وكان يوجد إضافة الى ذلك آلهة شخصية حامية عديدة بطبيعة الحال تمثلها أصنام، وآلهة ترعى أيام السنة المختلفة كما ترعى الجهات الأصلية الأربع، وكانت هذه الأخيرة هامة جداً ومن المناسب أن نقدم لها هذا الوصف المختصر:

كان الزابوتيك يقسمون سنتهم الطقسية إلى مائتين وستين يوماً تضم أربعة أحقاب يتألف كل منها من خمسة وستين يوماً ترتبط بوضوح بالجهات الأصلية الأربع. والأسماء التي أطلقوها على الآلهة المسيطرة

على هذه الأحقاب وعلى الجهات الأصلية الأربع كانت تدل على «الله» وعلى «إله المطر». ويمثلها مخطوط قديم على الشكل التالي: الإله الأول من بينها هو إله المشرق، وهو يعتمر قلنسوة أوقناعاً وله رأس تمساح ويعتبر إلهاً خيراً كما أنه إله الخصب. والثاني إله الشمال له ما يشبه القناع ومهجمة ميت. وإليه الغرب رأس حيوان مجهول بينها إله الجنوب رأس صقر. وثمة وجه خامس أيضاً يمثل مركز العالم ويحمل ألوان السماء الليلية وألوان الغسق، والرموز التي تحيط به تشير إلى الحرب.

أما التقويم والكتابة الهير وغليفية اللذان أثارا معضلات دقيقة فإنهما مشتقان بدون أدنى ريب من تقويم المايا ومن كتابتهما الهير وغليفية.

فهل يوجد هنا شكل ممسوخ عن المايا أم أن المايا أكملوا النظام البسيط الذي استعاروه من الزابوتيك؟ إن هذه الفرضية الأخيرة هي التي تبدو أكثر احتمالاً من حيث الظاهر فقط. فالزابوتيك لم يكونوا يعرفون إلا تقويمياً طقسياً مقسوماً كما قلنا إلى أربعة أحقاب يتألف كل منها من خمسة وستين يوماً، وينقسم الحقب بدوره إلى خمس زمر كل منها ثلاثة عشر يوماً. وكما كان الأمر عند المايا كانت توجد هنا خمس وعشرون إشارة تدل على الأيام. وقد توصل أحد العلماء النابهين حديثاً إلى أن هذه الإشارات عند الزابوتيك إنما تشكل حلقة متوسطة بين تسميات الأزتك وتسميات المايا على الرغم من وجود خلافات ليس لها في الظاهر أي تفسير. والاستنتاج الوحيد الذي يمكن الوصول إليه هو أن تقويم الزابوتيك يمثل مرحلة انتقال بين تقويم المايا وتقويم الأزتك، كما أن الكتابة الهير وغليفية تمثل هي نفسها أيضاً مرحلة انتقال. وبينما

الأعداد ترسم دائماً بحسب ترقيم المايا فإن الكتابة الهير وغليفية تختلف تمام الاختلاف .

ومع ذلك ، فمهما كانت حضارة الزابوتيك هذه جذابة ومثيرة للاهتمام فإن أهميتها تكمن في نظرنا في أنها كانت مدعوة لأن تلعب دوراً في تاريخ أمريكا الوطنية . فقد كان الزابوتيك والميكستيك وسطاء بين المايا وبين القبائل التي كانت تعيش إلى الشمال والغرب من واكساكا ، وكانت ثقافتها تضم العناصر الأساسية من المرحلة التالية لتقدم المايا نحو الشمال ، وهذه الرحلة هي التي تمثلت بالشعوب التي حملت اسم التولتيك TOLTEQUES .

والتولتيك يمثلون التبدلات الأخيرة المثيرة التي لحقت بحضارة المايا الأصلية . فقد وصل من المايا ثلاث موجات واضحة تلاقت كلها في ولاية فيراكروز ، أطلق على الأولى منها اسم الموجة القديمة لتدل على الركيزة الثقافية القديمة التي حملت معها الزراعة والحرف ومهنة النسيج وآلة النسيج . وأما الثانية فقد تمثلت بغزو المايا أنفسهم ناشرين معهم الكتابة الهير وغليفية في كل المنطقة التي كان يحتلها التونوناك تقريباً . والثالثة وهي أهمها بدأت نقطة انطلاقها من بلاد الزابوتيك والميكستيك ، ولا بد أن مركزها كان واكساكا ومنه انتشرت أولاً وفي عصر قديم نحو تيهاواكان وشولولا في ولاية بويبلا وكذلك نحو تخوم الغيريرو والواكساكا ثم بعد ذلك إلى الغرب من ولاية فيراكروز . وقد تلاقت هذه الموجات التي قدمت من كل الجهات في وادي مكسيكو . وإلى الشمال والغرب خلق مركز هام آخر في ميشواكان ونفذت حضارة التولتيك إلى مناطق زاكاتيكا ودورانغو وجاليسكو الغربية . وأخيراً ، وتحت مظهر آخر ولكنه مطابق في منحاها ، بلغت سينالوا وسونورا ، ومن هناك دخلت مظفرة إلى الجنوب الغربي من الولايات المتحدة وبقيت

حية بكل وضوح في أرقى الحضارات التي انتشرت الى الشمال من ريوغراندي وهي حضارة هنود البويبلو.

وفي كل هذه المنطقة الواسعة تشهد الكشف الأركيولوجية ويشكل لامراء فيه على قرابة تربطها بفن المايا، فالأهرامات والنحت ووسائل الزينة والحزف كل ذلك إنما استلهم من المركز الفني الكبير الواقع في الجنوب. وبما لا شك فيه أن التنفيذ هنا كان أدنى من الأصل، فالمعابد لم يعد لها قباب، وفن البناء بالطين المجفف بالشمس والملصق بالملاط حل محل البناء بالحجارة المشطوفة. وتوجد أهم آثار التولتيك هذه في شولولا وسان جوان تيوتيهواكان وكزو شيكالكو وتولا.

ففي شولولا بالقرب من بويبلو توجد مجموعة من التلال MOUNDS التي كانت تعلوها في الماضي معابد. كما توجد مدينة مقدسة هي موطن البطل المحدث كيتراكواتل، وتشتهر بتمثيلها البديع للشعبان الرائش كما تشتهر بحزفها المتعدد الألوان الذي يقدم أجمل النماذج المعروفة في المكسيك.

وتمتلك سان جوان تيوتيهواكان القرية من مكسيكو كما رأينا هرمين كبيرين لكل منهما أربع من المصاطب المتدرجة كما تمتلك طريقاً تحيط به أهرامات أصغر. وقد وجدت فيها أيضاً أشياء منحوتة ذات حجوم ضخمة. ولكن أهم الآثار المميزة في هذا المكان أحجار منحوتة تم اكتشافها حديثاً وتزين ثلاثاً من جهات المعبد الذي يتوج ما يسمى «هرم الشمس». وقد حافظت الألوان على بهائها تماماً كما أن رؤوس الشعبان الرائشة وفراشات صنعت من الأوبسديين حافظت كلها جزئياً على مارصعت به من الأوبسديين الذي يمثل فيها العيون. أما التماثيل الصغيرة واللعب ذات الأطراف المتحركة التي صنعت من الحزف فهي الأخرى من مميزات هذا المكان.

وتعتبر كزوشيكالكو القريبة من كويرنافاكا واحداً من هذه التلال
MOUNDS ، وفيها باحات ومدرجات واهرامات ، وأحد معابدها مزين
بشعابين كبيرة رائشة وشخصيات جالسة وكتابات هير وغليفية .
أما تولا فتقع على ثمانين كيلومتراً إلى الشمال من مكسيكو . وفيها
عدد كبير من المنحوتات والأعمدة الكبيرة المزينة بالشعابين الرائشة
والوجوه العملاقة ويعلموها تيجان حقيقية . وهي تذكرنا من الناحية
المعمارية بشكل صارخ ببعض الأبنية الموجودة في شيشين إيتزا في يوكاتان .
وقد أصبحت حضارت التولتيك هذه فيما بعد مهمة جداً للدرجة
أنها انتشرت بدورها في واكساكا تاركة طابعها على ميلتا ومؤثرة حتى في
الموطن الثقافي القديم لشيابا ويوكاتان . ويبدو أن هؤلاء التولتيك كانوا
يختلفون في نقطة أساسية عن الجماعات التي تشكلت منها غزوات المايا
الأولى . فنحن نفترض بحق أن هجرات المايا الثقافية القديمة كانت
تتألف خصوصاً من المايا أو على الأقل من أجناس يحملون فيهم نسبة
كبيرة من دماء المايا . ولكن التولتيك لم يكونوا بالتأكيد من المايا لا من
حيث الجنس ولا من حيث الثقافة ، فهم شعوب همجية قدموا من
الشمال وتبنوا حياة حضرية بتأثير من المايا ، ويمكننا أن نذهب إلى حد
التكهن بأن هؤلاء البرابرة كانوا يمثلون الفروع المتقدمة من الناهواتل
أقرباء الأزتلك القدماء الذين احتلوا فيما بعد كل منطقة تلاكسكالا
ووادي مكسيكو .

وهكذا انتقل مشعل حضارة المايا من يد قبيلة إلى يد قبيلة أخرى
حتى تم غزو المكسيك والولايات المتحدة بهذه الحضارة غزواً كاملاً .
فعلى طول خليج المكسيك وحتى فيراكروز ، ومن هناك عبر البحر
حتى مصب الميسيسيبي ، وعن طريق البر عبر مناطق شيابا وواكساكا
ووادي مكسيكو وميشواكان وجاليسكو وشيهواهوا حتى الأريزونا ، وفي

المكسيك الشمالية وكولورادو وأوتا، على كل هذه المساحة الواسعة امتد فتح هذه الحضارة. فقد هاجر نظام اقتصادي حقيقي الى الولايات المتحدة وتبع ذلك نتائج عجيبة. فالقبائل الهمجية الرحالة ذات القربى بالكومانش والأوت - وهي شعوب بدائية جداً - ما لبثت أن شعرت بيصمة ثقافة التولتيك، وعندما انتقلت الى الجنوب صار يطلق عليها اسم قبائل الناهواتل الشهيرة والأزتك، ومنذ عام ٦٠٠ للميلاد لم تنقطع قط حركة الذهاب والإياب.

أساساً ما يتعلق بالولايات المتحدة فقد برزت فيها نتيجة لهذه الغزوات كبيرها وصغيرها منطقتان ثقافتان متميزتان إحداهما في شرقي الميسيسيبي وتعتمد على إسهامات المايا وتمثل في بعض مناحيها إرثها المباشر لهم، والثانية في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة تقوم خصوصاً على مؤثرات التولتيك وبصورة غير مباشرة على مؤثرات المايا على الرغم من وجود إسهامات أقدم من ذلك تتضح فيها تمام الوضوح. وهكذا فإن الجذرين الرئيسيين اللذين سيطرا على حضارة الوطنيين من سكان الولايات المتحدة هما بناء التلال MOUNDS في الشرق وسكان الأجراف في الغرب. وعن هذين الطريقين تمدنت أمريكا البدائية. ولكن الروابط التي كانت تربطها بأكبر منابع الثقافة الوطنية أصبحت تضعف وتتراخي شيئاً فشيئاً حتى انتهت بالاختفاء تماماً في غابات كندا، ثم ما لبثت أن سيطرت قاعدة الاصطفاء.

الفصل السادس

فتوحات الإله الشمس

يروى لنا المؤرخ مونتيسينو أنه قبل عصر الإنكا وعندما كان هويراكوشا يقوم بإعادة بناء كيتو سمع حديثاً عن شعب محارب كان يعيش على الجانب الآخر من سلسلة الجبال التي تمتد من سانتا ماريا حتى مضيق ماجلان، فرغب فوراً بأن يخضع هذا الشعب لسلطته. ومن أجل أن يحصل على معلومات في هذا الموضوع كلف ستة من القواد مع عدد كبير من الجنود بأن يذهبوا إلى هذه المنطقة. فاطاع هؤلاء وتوجهوا إلى هذه الشعوب التي كانت تعيش في الغابات على ضفاف الأنهار الكبيرة. وكان هؤلاء الوطنيون يكادون يكونون عراة تماماً من كل ثياب. إلا أن البيريين لم يتمكنوا منهم لأن قوتهم كانت ضعيفة نسبياً فما لبثوا أن تفرق شملهم. أما العائدون منهم إلى كوزكو فقد رويوا إلى الملك الكبير كل ما شاهدوه فعدل عن كل محاولة ثانية لإخضاع هؤلاء القوم. ومع ذلك فإن هؤلاء البرابرة الذين كان يفترض أنهم منيعون في الظاهر على

الحضارة الرائعة التي كان يمثلها هويراكوشا كانوا قد تأثروا في ذلك العصر بإشعاعاتها الخيرة . وما لبث كثير من عناصر هذه الثقافة البيرية الإنكساوية وما قبل الإنكساوية أن نفذ اليهم خلال السنين التالية عبر الجبال المغطاة بالغابات الكثيفة حتى وصل الى شواطئ الأنهار .

وبعد وقت قصير من إرسال جيش الاستطلاع الأولي عن أحوال هذه الشعوب البدائية قام هويراكوشا بحملة توسعية أخرى على الغواياكيل الذين كانوا يسكنون الساحل ومعه في هذه المرة جيش قوي قدير . ويسري المؤرخون أنه مضى منشرح الصدر على الرغم من صعوبة الطريق لأن نبوءات حسنة جداً كان قد استتجها العرافون على أثر الأضاحي التي قدمها قبل المضي في المشروع . وكان ذلك على الأقل هو ما صرح به الكهان الذين كان عليهم أن يفسروا أحشاء الحيوانات الضحايا . وقد مر على قرى كالاكولي وبولولاغا ، وأثار الطرقات التي بناها لا تزال ماثلة للعيان وملاً قلوبنا بالدهشة والإعجاب .

وفي خلال هذه الرحلة المليئة بالأخطار كان يوجد الكثير من العوائق الجغرافية التي يجب التغلب عليها ، ففي أحد الأماكن كان ينبغي بناء جسر حباله من أغصان السوحر (نوع من الصفصاف) . وعندما انتهوا من صناعة الحبال لاحظ الملك والحقيبة قملوه أن النهر كان عريضاً جداً وغيماً جداً ومندهماً جداً وأن كل ما بذله من جهد كان على غير طائل . وعندما اقتنع أن من المستحيل عليه أن يبني جسراً قوياً بما فيه الكفاية أمر ببناء أطواف من خشب خفيف لاجتياز النهر . وما أن انتهى الجنود من بناء هذه الزوارق حتى ركبوها ودخلوا مباشرة في نزال مع العدو المتمركز على الضفة الأخرى . ودامت المعركة أياماً عديدة وجرت سجالاً تارة ينتصر هؤلاء وتارة هؤلاء بحسب تيار النهر . . . وأخيراً

أصدر هويراكوشا أوامره إلى قواده بأن يهاجموا على كل الجهات في الوقت نفسه . وكان يمكن لهذه الخطة أن تفشل هي الأخرى لولا أن شبت المنازعات في صفوف الاعداء الذين أرسل الزعيم الرئيسي بينهم يرسل إلى هويراكوشا ليعلموه بخضوع رئيسهم مع قطاعه إليه . وعندما علم حلفاء هذا الزعيم بما فعله حليفهم عادوا الى قراهم وتركوا الميدان مفتوحاً أمام الإنكا الذين نزلوا على الشاطئ ، الآخر بدون صعوبة في المكان الذي تنتصب فيه حالياً مدينة غواياكيل . وقد أنعم هويراكوشا بكل أنواع العطاء على الزعيم الذي استسلم له لأنه لولا مساعدته لما أمكنه في الغالب أن يخضع كل هؤلاء السكان الذين كانوا يستقرون في هذه الأراضي التي أقيمت عليها مدينة غواياكيل .

وهكذا مد ملوك الإنكا وما قبل الإنكا حضارتهم البيرية الى كل الجهات . ومع ذلك فإن فتوحات الإنكا في تاريخ أمريكا الوطني تختفي أمام الفتوحات التي قام بها أسلافهم من قبل . ففي الحقبة القصيرة التي سجلوا فيها سيطرتهم والتي لا تمتد إلى أكثر من أربعة قرون كاد الإنكا أن يتشغلوا حصراً بمد سلطانهم على الشعوب التي سبقتهم . وكانت تلك مهمة واسعة في حد ذاتها حتى شغلت كل وقتهم وكانت قد أوشكت على الانتهاء عندما وصل الأسبانيون الى هذه البلاد وكل آثار الحضارة التي تمثل في مختلف درجاتها ما قام به الوطنيون في أمريكا الجنوبية الى الشرق من جبال الأنديز وعلى الأمازون وكل من خضع لهم من الشعوب ليس مردها إلى الإنكا وإنما الى من سبقهم من السكان . ولم يتجاوز الإنكا حدود هذه الفتوحات الا في بعض النقاط .

وثمة دلائل عديدة تثبت لنا أن هذه الحضارات السابقة للإنكا في بير ووالاكواتور وبوليفيا كانت قديمة جداً . فمؤثرات المايا مثلاً تعود الى حوالي عام ١٠٠ ق . م . وقد وصلت هذه الحضارات ما قبل

الإنكاوية ما بين القرنين الثالث والسادس للميلاد، سواء على الساحل أو في الجبال، إلى نضج كامل وامتدت نحو الشمال والجنوب، واجتازت الأنديز حتى بلغت الأمازون والمنحدرات الشرقية لهذه الجبال العالية ووصلت حتى سهول شاكو الأرجنتينية الجرداء.

وكما كان الأمر في المكسيك وفي أمريكا الشمالية فإن علينا أن نعتبر الحضارة البيرية هنا على أنها منبثقة في مسيرتها من غزوات متتالية. والاختلاف الأساسي بين ماضي الثقافة الوطنية في أمريكا الشمالية وبين ماضي الثقافة الوطنية في أمريكا الجنوبية يكمن في أن الغزوات الأولى في الجنوب حملت صفة أقل حشماً وأقل مأساوية. فمن الخطأ أن نتصور جيوشاً مسلحة خرجت من بير و واجتازت البلاد من أجل أن تحمل حضارتها إلى برايرة البرازيل. بل إن الأحرى بنا أن نتصور انتشاراً سلمياً مستمراً للعناصر الحضارية يشبه ما شهدناه عند أسكيمو آلاسكا عندما احتكوا بهنود الساحل الشمالي الغربي من أمريكا الشمالية.

ولا بد أن الحضارات البيرية قد قامت في عصر قديم جداً من تاريخها بنشر الزراعة والحرف بين بعض شعوب البرازيل البدائية كالأراواك ARAWAK والكاريب KARIB والتشوبي غواراني TUPI-GUARANI. ومع ذلك فإن الغلبة العذراء هنا أيضاً والبرايرة القدماء ملأ الأرض لم يتركوا عناصر الثقافة البيرية سليمة دون مساس مدة طويلة من الزمن فما لبثت أن تعدلت وتبدلت ولحق بها التفكك والانحلال.

وعلى الرغم من أننا نجد في البرازيل الشرقية مثلاً أساطير بيرية حقيقية وعادات نموذجية مصدرها بير ومثل صيد الرؤوس البشرية فإن ذلك لم يكن قط هنا إلا أصداء بعيدة لهذه الحضارة القديمة الكبرى

المختبئة بين وديان وصخور بوليفيا وبيرو. وليس وجودها لها دلالة على غزوات ثقافية جديدة كما كان الحال في أمريكا الشمالية كما رأينا. فقد احتفظت الشعوب البدائية في أمريكا الجنوبية دائماً بزراعتها وخزفها وهما عنصران نجدهما دائماً مجتمعين في أمريكا ولكنها لم تطورهما بعد ذلك قط. ولم تكن الزراعة تمثل عندهم أبداً هذه الأسس الثقافية العديدة التي رأينا وجودها في أمريكا الشمالية من احتفالات معقدة وطقوس ووحدة سياسية وحكومية، حتى يمكننا التأكيد بأن السكان المحليين - على الرغم من الزراعة - لم يصبحوا قط في البرازيل حضريين حقيقيين. وعلى الرغم من الضغط الدائم الذي كان يصلهم مما وراء الأنديز فإن هؤلاء البرابرة كانوا يميلون أبداً لأن يرثموا في عاداتهم القديمة من جديد.

ولكن ثمة استثناءين لا بد من ذكرهما. فبعض قبائل الأراواك خضعت لتأثير مزدوج قادم من المايا ومن البيريين السابقين للإنكا. فقد هاجر هؤلاء الأراواك الذين يسمون بالتينو TAINO إلى جزر الهند الغربية وبخاصة إلى أوسمها وأنشؤوا هناك حضارة متقدمة بعض الشيء امتازت بنحتها على الخشب وخزفها وتنظيمها الاجتماعي المعقد. وقد مارس هؤلاء التينونفوذهم بدورهم على الهنود القاطنين في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة.

والاستثناء الثاني هو ذلك الازدهار غير الطبيعي الذي قدمه لنا الخزف المكتشف على المجرى الشرقي من نهر الأمازون. فهنا في بعض القطاعات المتفرقة في الجنوب وجدنا أشياء ذات صفات متفوقة حقاً. والصفة المميزة لهذه الجرار والأنية هي الشكل الإنساني الذي تمثله في أغلب الأحيان. كما أنها مغطاة غالباً بزينات محكمة الصنع. ومن

الصعب أن نفسر وجودها على مثل هذا البعد من بير ووبوليفيا، وربما كانت البقايا الأخيرة لغزوة كبرى اختفت كل آثارها الأخرى.

ومع ذلك، فإذا كانت حضارات بير والقديمة لم تمارس إلا نفوذاً ضئيلاً على القسم الأكبر من أمريكا الجنوبية إلى الشرق من جبال الأنديز حيث لم تنفذ إلى هناك إلا ببطء فإنها على العكس من ذلك طغت تماماً على المنحدر الغربي للكورديير CORDILLÈRE وامتدت شمالاً حتى برزخ بناما وجنوباً حتى شيلي، ولم يكن بإمكان ذلك أن يحدث إلا بفتح حقيقي.

ومما لا شك فيه أن الثقافة الأقدم في بير وهي تلك التي قامت على ساحل المحيط الهادي. فهنا انتصبت مدينة باشا كاماك الكبرى ومعبدتها الشهير، والواقع أنه كان يوجد معبدان، أحدهما وهو الأقدم كان ينتصب فوق تلة مشكلة من مصاطب صناعية مدرجة تبلغ مساحتها حوالي ٣٢٥ متراً مربعاً ومحاطة بباحة مسيجة واسعة. . وكان يوجد أمام مدخله الخارجي صفان من الأعمدة ومجموعة من الأبنية الأصغر حجماً. ونلاحظ في كل هذه المنطقة أعداداً من المدرجات والاهرامات ذات الطوابق. وإلى الجنوب من باشاماك كان يقع مركز آخر هو نازكا الشهيرة بخزفها، بينما يوجد إلى شمال باشاماك مركز ثالث هو ترجيلو التي عُرفت هي الأخرى بفخارها الدقيق الرائع.

وقد امتدت هذه الثقافات المحلية على طول الساحل نحو الشمال وتسببت في ولادة مراكز مختلفة تماماً في إكواتور وكولومبيا وعند الشيركي في برزخ بناما. وبعد بدء فتح الساحل بقليل قامت حملتان أيضاً باخترق الجبال. ذلك لأن حضارة تياهوواناكو على بحيرة تيتيكاكا أخذت تظهر فيها فجأة عناصر حضارية قادمة من الساحل. فليس من المستغرب إذن أن تُكتشف دلائل عن إشعاع لهذه الحضارة وصل

حتى الإكواتور وكولومبيا في الشمال . ويزداد الأمر تعقيداً أيضاً برصول
مؤثرات ثقافية قادمة من غواتيمالا .

والخلاصة هي أن حضارة شيبشا CHIBCHA الكبرى في كولومبيا
وحضارة الكوكا في إكواتور إنما قامت على أساس من عناصر ثقافية
قدمت من ساحل بيرو . وكما كان الأمر مع حضارة الأزتك فإن هذه
الحضارات حافظت على ما يبدو على العديد من خصائصها القديمة
التي أضاعتها حضارة الساحل البدائية . والواقع أن بإمكاننا حتى أن
نؤكد أنه إذا كانت العناصر الرئيسية من الثقافة الكولومبية تعتبر
انعكاسات للعناصر القادمة من ساحل البير وفإن ميل الإنكا القوي
إلى الملكية المطلقة كان يبدو واضحاً قبل ذلك لدى هذه الشعوب التي
كانت تمت للإنكا على كل حال بنسب بعيد .

وقد ترك لنا المؤرخون الإسبانيون أوصافاً جيدة للمجتمع
الكولومبي وبخاصة مجتمع شيبشا . فعلى رأس الدولة كان الملك الذي
يركز بين يديه سلطات ليس لها حدود مدنية وعسكرية في الوقت نفسه ،
وكما كان الأمر لدى الإنكا فإنه هو الذي كان يعين الكهان ، ولم يكن
العامة من الناس يستطيعون أن ينظروا إليه في وجهه وفي حضوره بل كان
ينبغي عليهم أن يستديروا أو أن ينحنوا . ولم يكن المبعوثون يظهرون إلا
إذا كانوا يحملون له هدية أو تقديماً . وعلى الرغم من عدم ادعائه بأنه
ينحدر من أرومة إلهية فإن ملك شيبشا كان يحيط نفسه مع ذلك بكل
شعارات الملك الإله . فكان عرشه من الذهب المكفّت بالزمرد . وعندما
كان ينتقل كانت محفته مغطاة بصفائح الذهب . وكان يسبقه أفراد من
الحاشية يحملون له الدرب ويمدون البسط وينشرون الورود على
الطريق . وكانت زينة رأسه من الذهب كما أن زينة أخرى من المعدن
نفسه على شكل هلال كانت توضع له فوق الجبين . وأخيراً فإن زينات

فإن زينبات أخرى كانت توضع له في الأنف والأذان وكانت كلها من الذهب أيضاً .

وإذا كنا لم نسمع عن ملك أحيط بمثل هذا الذهب فإننا لم نسمع في المقابل عن ملك كان يتوجب عليه أن يخضع لتجربة قاسية ومذلة كتلك التي كانت تنتظر الوريث لعرش شيشا . فقد كان على هذا الوريث أن يعيش لمدة خمس سنوات على الأقل بعيداً عن الناس منسحباً إلى معبد لا يجوز له أن يغادره إلا أثناء الليل . وكان يخضع لجلد قاس يتناوب مع صوم شديد . وبما أخذ عليه نفسه بأن يعترف بأية مخالفة للنظام الذي فرض عليه . وكانت التسويات والكفارات تتوالى بدون انقطاع وتستمر تعذيبات الجسد بالحرمات وقمع الشهوات شهراً وسنوات . وأخيراً عندما يقترب يوم التحرر يثقبون له أنفه وأذنيه كي يستطيع حمل الحلي التي أعطته حق حملها طبقته الاجتماعية . وعندئذ يقدم للآلهة صوراً من الذهب ذات أشكال حيوانية .

والخلاصة أنه كان يُحَقَّر إلى أبعد الحدود عن طريق هذه التجارب القاسية التي تفرض عليه . وعند التتويج تقام له الاحتفالات الكبرى التي يمكن أن يقال عنها إنها مشاهد من صنع الجن . وحتى بالنسبة للعقول التي أضربت خيالها حكايات الإللدورادو^١ EL DORADO فإن هذه الاحتفالات كان لابد لها أن تبدو كأنها تحقيق الحلم أسطوري لا ظل فيه من الواقع . وكان الشعب كله يشترك فيها وهو في

* - الداورادو منجم ذهب أسطوري ادعى اكتشافه في أمريكا في تلك الفترة صاغه إسباني وطبقت شهرته الأفاق حتى بات يقرن بجنات عدن .

أبهى زينته على ضفاف بحيرة غواتابيتا المقدسة . وكانت الزينات الذهبية تلمع في كل مكان وكذلك الزينات من الريش البراق . وعلى الشاطئ كانت توقد مواقد الأضاحي العديدة ويشحن الهواء بسحب البخور الكثيفة . ثم يتقدم السلطان الجديد وقد مسح جسده العاري بنوع من التراب المتناسك ورش فوقه ذرور من الذهب . على أن ذلك ليس إلا البداية لأن رحلة أسطورية تكون له في الانتظار . فيحرق على طوق مزين بالذهب محاطاً بأربعة من الزعماء وعند قدميه تتكدس أكوام من الذهب والزمرد . ثم يتعمد الطوف ببطء وسط هتافات الجماهير وتهليلاتهم نحو وسط البحيرة حيث يغطس السلطان الجديد بالماء ليتخلص من ذرور الذهب الذي كان يغطي جسده . ثم ترمى بعد ذلك إلى المياه المقدسة أكوام الذهب والزمرد التي كانت تتكدس على الطوف .

أما ديانة شيشا فتظهر لنا بطريقة مؤكدة إلى أي مدى حافظ الإنكا على معتقدهم القديم . فالشيشا كانوا «أولاداً حقيقيين للشمس» . فالى هذا النجم العظيم كانوا يقدمون الذهب والزمرد والبخور في المعبد الرائع الجمال الذي كان يقع الى الشمال الشرقي من مدينة بوغوتا . ولكن التضحية الأهم كانت تضحية الأطفال الصغار الذين كانوا يُشرون في سن مبكرة من المقاطعات النائية . فبحسب مفاهيم شيشا الدينية كان هؤلاء الأطفال يُستخدمون وسطاء بين الكفارات المقدمة عن الذنوب وبين الذات الإلهية المهانة ، وكانوا يحاطون بكل مظاهر الاحترام العميق حتى أن أقدامهم ما كان ينبغي لها أن تمس الأرض . وهم يقضون أيام حياتهم القصيرة منشدين في المعبد ، حتى إذا ما بلغوا سن الرشد كانوا يقدمون للتضحية فتقدم قلوبهم ودمائهم للشمس وسط الأناشيد التي ترافقها الأنغام الموسيقية .

ولقد كانت حاضرة الإكواتور القديمة ذات شبه عظيم بحضارة كولومبيا ولكن على مستوى أدنى بقليل ، باستثناء ما ظهر من تحف فنية منحوتة في الحجر أو مصنوعة من الذهب .

والى الشمال من شيبشا تختفي حضارة الساحل الأصلية مهزومة أمام مؤثرات قادمة من المكسيك ، وبالتالي فإن حضارات هذه المنطقة تشكو بوضوح من طبيعة أصلها التركيبي .

وهكذا انتشرت إذن حضارات ما قبل الإنكا القديمة على الساحل وعلى الهضاب العالية ما بين نازكا وبحيرة تيتي كاكّا حتى برزخ بناما ، وكما لاحظنا في حالة المكسيك فإن بعض الثقافات التحتية قدمت خدماتها كواسطة بين الحضارة الأساس وبين بقية أمريكا الجنوبية . أما الدور الذي لعبه زابوتيك وإكساكا في نشر ثقافة المايا فقد اضطلع بمثله أهالي شيبشا في كولومبيا بالنسبة لحضارة البيرو البدائية . وما فعله بناء التلال الصناعية MOUNDS في منطقة شرقي الميسيسيبي فعله أراواك الشمالي الغربي في البرازيل وفي جزر الهند الغربية .

وإن لمن المناسب أن ندرس الآن ذلك الطريق الذي سلكته الحضارة البيرية القديمة نحو الجنوب والجنوب الغربي فيما وراء المنحدرات الشرقية لجبال الأنديز . فقد وجدت ألقى مهمة على طول الشاطئ إلى الجنوب عندما كشفت آثار للزراعة والحرف وأشياء متعددة من النحاس إلى جانب مواد تخص شعباً يكاد يكون بدائياً . ويدل كل شيء على أننا هنا على تخوم مؤثرات بيرية . ومع ذلك نجد أنفسنا أمام شيء ملفت للنظر هو أننا نصل بعد هذه الثقافة البسيطة إلى آثار شعب متطور نسبياً هو الأروكان . ومهما كان مفاجئاً تطور هذا الجنس المحارب الذكي فإن المفاجأة ستكون أكبر عندما نعلم أن تطوره هذا إنما حدث في فترة قصيرة جداً من الزمان .

فعلى العكس مما حدث في بقية امريكا الجنوبية كادت حضارة الأروكان أن تكون حصراً من عمل الإنكا . فلا بد أن فتح هؤلاء كان كاملاً لأننا نجد هنا مساكن واسعة مبنية من الحجارة ومدرجات للزراعة وغرفاً ذات دعائم من حجر واحد وثياباً منسوجة وتربية لحوان اللاما . وهذه الملاحظة الأخيرة تدلنا على أن هذه الشعوب كانت شعوباً رعوية كما كانت شعوباً زراعية . وفي خلال الفترة الوجيزة التي فصلت بين تبنيهم ثقافة الإنكا وبين الفتح الاسباتي لبيرو ونجح الأروكان في نشر بعض عناصر هذه الثقافة التي وصلتهم بعد الأوان بين القبائل الممجية في الشرق ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ المناطق الجنوبية من أمريكا الجنوبية .

أما في الجنوب الغربي على الطرف الآخر من الأنديز فإننا نجد ثقافة أكثر قدماً بكثير . فهنا وكما كان الأمر في كولومبيا والإكوادور تعود المؤثرات البيرية الى حضارات ما قبل الإنكا وربما الى طور معدل من حضارة تياهوكانوا على بحيرة تيتيكاكا . . فهذه الحضارة المسماة بالشالشاكي كانت تسود في الماضي على كل الشمال الغربي من الأرجنتين الحالية . وكانت الشمس هنا هي الإله الأكبر وكثر فيها السراقصون المقتنعون . وكانت الزراعة منتشرة على أوسع نطاق ، وبينما كان النحاس دارجاً كان الذهب نادر الاستعمال . والعنصر الأكثر تميزاً للمنطقة هو خزفها الجميل المتعدد الألوان والمزين بالرسوم . فكل شيء يدل على أن حضارة معقدة جداً وأقدم بكثير من حضارة الإنكا قد سادت هنا .

وقد انتقلت بعض عناصر حضارة الشالشاكي الى القبائل الممجية في غران شاكو وانتشرت من هناك في مناطق واسعة من الأرجنتين وباراغواي وأوروغواي وفي البرازيل الجنوبية . ومع ذلك فإن

المؤثرات البصرية في الواقع لم تتجاوز الشالشاكي ، كما كانت في الشمال
قد توقفت على السفوح الغربية من جبال الأند . ففيها وراء جبال
كوردسير - ولنكرر ذلك مرة أخرى - ، وفي البرازيل وبوليفيا وغويانا
والارجنتين لم يكن يعيش إلا شعوب همجية ، وذلك باستثناء الأراواك
الشماليين الذين أتيح لهم أن يروا بعض الانعكاسات الضعيفة من أنوار
جنة إلدورادو.

الفصل السابع

ملحمة الهجرة

في تاريخ أمريكا لا يوجد إلا القليل من المواقف المؤثرة التي تشبه اللقاء الشهير بين مونتيزوما والسيء الحظ مع كورتيز عندما دخل هذا الأخير مدينة المكسيك. «إنني قلق منذ أيام طويلة» هكذا قال مونتيزوما، «منذ أن ألقيت أنظاري على هذا البلد المجهول الذي أتيت منه، بلد الغيوم، بلد الضباب، لأن أجدادي تكهنوا منذ زمن بعيد أنك ستأتي في يوم من الأيام لتزور وطنك وأنت ستعود في يوم من الأيام لتجلس على عرشك من جديد».

وكان مونتيزوما قد ألمع في مقالته هذه إلى بلد رائع الجمال، في ظل جباله العالية تمتد المياه الزرق في كل اتجاه، وتزهرف فيه ورود بيض وتنبثق أسللات بيض أيضاً من بين رمل الشواطئ، الرائعة الباهرة. وتشيع بين الجميع أنواع المأكّل اللذيذة التي ينال كل إنسان منها حاجته. وتنضج النباتات فيه بسرعة بالغة حتى تبلغ أعلى ارتفاع. ويكتسي القطن ساعة نضجه ألواناً رائعة الجمال ما بين أحمر قان ووردي شاحب وأصفر وأخضر. ويرتقائي وينفسجي ورمادي غامق. ويتكسّد الذهب

والفضة والأحجار الكريمة النادرة على الأرض دون أية حراسة لأن
أحداً لا يوليها أي اهتمام ولا يقيم لها أي وزن . إلا أن هذه الروائع
اختفت منذ زمن طويل عندما قدم بدود مونتيزوما البعيدون إلى
مكسيكو - تينوشيتلان ، وتلاشى كل شيء عندما سافر كيتزالكواتل
سلطانها الكبير وترك وراءه هذا البلد الرائع البعيد .

وقد وصل كيتزالكواتل قبل أجيال عديدة إلى يوكاتان ماراً
بشولولا . وكان ذا مظهر غريب : أبيض الجلد : عريض الجبهة ، ذو
عينين واسعتين وشعر طويل أسود ولحية كبيرة . ولن ينسى أحد من
الرجال قط ما علمه لهم . فقد طلب منهم أن يحافظوا على العفة وعلى
الاعتدال في كل شيء ، وعلى ألا يضحوا بالبشر أو الحيوانات بل أن
يجدوا مسرتهم في أن تكون قرايبتهم خبزاً ووروداً وأزهاراً أخرى وعطوراً
وأن يبتعدوا عن الحروب وعن كل أعمال العنف .

إلا أنه كان مقدراً لهذه البلاد الرائعة السعيدة أن تختفي . فقد
تآمر ثلاثة من السحرة لم يكونوا في الحقيقة إلا آلهة متكررين من بينهم
تيزكاتليوكا وهويتزيلوبوشتي ، تأمروا على خلع كيتزالكواتل عن
العرش . وكان تيزكاتليوكا مكلفاً بخداع الملك - الإله المحسن . فأتخذ
هيئة رجل له رأس اشتعل فيه المشيب واقتحم منزل كيتزالكواتل قائلاً
للخدم : «إنني أريد أن أكلم سيدكم» . فأجابوه : «ابتعد أيها العجوز
فلن نستطيع أن نرى ملكنا لأنه مريض ولنسوف يزعمجه حضورك» .
ولكن تيزكاتليوكا ألح بقوله : «لا بد لي أن أراه» .

عندئذ طلب منه الخدم أن ينتظر . وذهبوا ليخطروا كيتزالكواتل
بأن شيخاً يصبر على رؤيته ويرفض الانصراف . فأجابهم كيتزالكواتل :
«فليدخل لأنني كنت أنتظر وصوله منذ أيام» . ودخل تيزكاتليوكا قائلاً
للملك المريض : «كيف حالك؟» ثم أضاف أن لديه دواء أتى به إليه .

فأجاب كيتزالكواتل : «أنت على الرحب والسعة أيها الشيخ لأنني كنت أنتظره منذ أيام ، فانا في أشد المرض وكل جسدي يؤلمني ولا أستطيع أن أحرك يدي ولا رجلي» . فقال تيزكاتليبوكا «إليك هذا الدواء الذي سينفعك ويشفيك ويجعل الألم بعيداً عنك ، فإذا رغبت بشره فلن تشعر بعدها بشيء لأنك ستشفى ويرتاح قلبك ولا تخشى الام الموت ولا متاعب الذهاب» . فسأل كيتزالكواتل : «والى أين سأذهب؟» . فأجاب تيزكاتليبوكا : «إلى تولا أنتلابالان حيث يتفطره شيخ آخر فتحدثان سوية وتعود مرة أخرى كشاب فتي» .

وعندما سمع كيتزالكواتل تلك المقالة تأثر قلبه . وألح الساحر المعجوز من جديد مكرراً : «اشرب يا سيدي هذا الدواء» . فلما رفض الملك عاد الساحر إلى إلحاحه : «اشربه يا سيدي وإلا أصابك الندم ، أفرك منه قليلاً على جبهتك على الأقل وتناول جرعة منه» .

فحزم كيتزالكواتل أمره على أن يتذوقه وقال : «ماذا حدث؟ ، إن هذا الدواء لذيذ وصحي ، وما أنذا أحس بالشفاء والتحرر من آلامي ، ها أنذا قد استعدت عافيتي» . عند ذلك أجاب الساحر المعجوز : «خذ منه مرة أخرى يا سيدي طالما أنه أفادك وبذلك ستشفى تمام الشفاء» . وأخذ كيتزالكواتل يتجرع منه حتى ثمل ثملاً وانخرط في بكاء مروتأثر قلبه واستعد للرحيل لأنه لم يكن يستطيع أن يتخلص من فكرة أن عليه أن يرحل . وهذا ما كان يريد تيزكاتليبوكا وما خطط له خداعه به . فالدواء الذي شربه كيتزالكواتل لم يكن إلا خمر اللاد الأبيض وقد مزج بهادة تدعى التوميتل .

وذهب كيتزالكواتل في رحلته الطويلة ، ولكن تيزكاتليبوكا الذي لم يكتف بنجاحه هذا قرر أن يدمر الشعب الذي كان كيتزالكواتل سلطانه الروحي . وفي أحد الأيام تنكر في زي شحاذ وظهر في ساحة

السوق أمام قصر الملك فيياك، فرأته ابنة الملك ووقعت أسيرة حبه حتى أصابها المرض والهزال ولم تُشف إلا عندما أتوا به إليها وعُقد قرانها عليه . ولكن رعايا الملك شعروا بإهانة بالغة من هذا الزواج : «ماذا؟ ألم يكن بالإمكان اختيار صهر أكثر جدارة بملكنا من هذا الغريب اللعين؟» . وكان الملك يرغب بالتخلص من هذا الصهر المزعج ، فأمر رعاياه بأن يأخذوه الى الحرب وأن يتركوه وحيداً حتى يناله الهلاك . ولكن الغريب لم تتطل عليه الحيلة وعاد من الحرب مظفراً حتى أجبر الملك على أن يعترف بشجاعته .

وأخيراً حلت الكارثة . فقد تزين تيزكاتليوكا برياش توسيفيتل الجميلة وأمر التولتيك بأن يتجمعوا لآحياء احتفال . وقد بدأ بإرسال مناد إلى قمة جبل اسمه تزاوتزيتيك ليدعو الغرباء والسكان البعيدين إلى الاحتفالات الراقصة . فتجمع عدد كبير من الناس في تولا . وعندما التأم الجمع قاد تيزكاتليوكا الشباب والفتيات إلى مكان اسمه تيكسكالابا فافتتح الرقص هناك وأشرف عليه ترافقه في هذه العملية طيلة صغيرة . ثم غنى بعد ذلك وهو يتلو أمام الراقصين مقطعاً بعد مقطع من الأغنية فيكررونها من بعده رغم أنهم كانوا يجهلون هذا الغناء .

وعند ذلك حدث شيء مذهل رهيب . فمنذ الغسق حتى منتصف الليل كان خبط الأرجل التي لا تعد يتسارع أكثر فأكثر بينما غدت ضجة الطيلة قصفاً دائماً والغناء الذي كان رثيلاً في البدء تضخم بصورة وحشية وانفجر كهزيم السرود . أما الجمع فقد أصبح ضاجاً صاخباً وبدأ الناس يتدافعون ويعرقل بعضهم مسيرة بعض حتى استحوذ على مشاعرهم ذعر شديد . وكان على مقربة منهم خائق جبلي خفيف ينحدر فيه نهر اسمه تكسكالتلوهكو وعليه جسر كان الناس

يحاولون الفرار فوقه عندما جعله تيزكاتليوكا ينهار إلى أعماق الوادي بيا فوقه من الناس . وكمشاهد غير متأثر بيا يجري في عربدته المميتة تان الإله ينظر إليهم وهم يدوس بعضهم بعضاً ويسحقون ويقفزون إلى أعماق الهاوية ، فمن سقط منهم مُسخوا إلى صخور ، ومن نجا لم يدرك قط أن تيزكاتليوكا هو من كان بفضل سحره وراء الكارثة ، فقد كانوا مسحورين يمشون كالثملين وقد حرّموا من كل حس .

وفي خلال ذلك كان كيتزالكواتل يتابع طريقه نحو الجنوب . فمكث عشرين عاماً في شولولا ومنها مضى على الطريق نفسه أخذاً معه أربعة من أنبل شباب المدينة . وبعد أن قطع مائة وخمسين فرسخاً وصل إلى بحيرة في إحدى المقاطعات البعيدة في الجنوب ، وهناك استأذن رفاقه بالانصراف وطلب إليهم أن يبلغوا الجميع أنه سيأتي يوم ينزل فيه قوم من البيض على سواحلهم قادمين من البحر من الجهة التي تشرق منها الشمس .

فهذه النبوءة هي التي أُلْعِ إليها مونتيوزوما في كلمات الترحيب المليئة بالبساطة والاحترام التي وجهها إلى كورتيز عندما التقاه .

ولكن ما معنى هذه الأسطورة؟ . . أهي واحدة من القصص العديدة التي تناولت العصر الذهبي من حضارة الإنكا وانخدع بها الناس في كل البلاد . أم هي مثال جديد عن مزيج مستعص على الحل شاركت فيه الحقيقة والخيال كما يحدث دائماً في تاريخ العالم؟ . لقد تردد العلماء طويلاً في الحكم . وكان معظمهم فيما مضى يميل إلى ألا يرى فيها إلا أمنية مزخرفة ، ولكننا في العصر الحاضر أصبحنا نملك من المعلومات ما يساعدنا على الوصول إلى حكم أفضل . فهذه الأسطورة مثل غيرها من الأساطير ليست تحريفاً رمزياً لحادث حقيقي . فهي تروي باختصار وتحت شكل ميثولوجي ظهور ثقافة التولتيك التي كنا

تكلمنا عنها في الفصل السابق . وهي ترسم لنا لوحة مزوقة لهذه الحضارة كما كان يراها أحفاد هؤلاء البرابرة القادمين من الشمال الذين أصبحوا أسبداً لهذه الحضارة قبل أن ينتهي بهم الأمر إلى تدميرها . فليس الأمر متعلقاً هنا لا بالهبة ولا بأبطال وإنما بشعوب ثمرور وبحركات ثقافية تزدهر وتزول .

ومما يمكن أن يدهش له المرء حقاً ليس التشويه الذي لحق بالحقيقة وإنما هو ذلك الخط العام للأحداث الذي استطاع أن يبقى ويستمر . فمما لا شك فيه أن ثقافة التولتيك إنما قدمت من الجنوب ، ثم ما لبثت أن هُزمت وطردت نحو الجنوب من جديد بينما بقيت شولولا مركزاً للتولتيك سواء خلال الحقبة السابقة أو اللاحقة .

فأسطورة كيتزالكواتل إذن ما هي في شكل ما إلا راسب حركة ثقافية واسعة . فتيزكساتليوكا وهو تيزيلوبوشتل إنما يرمزان إلى برابرة الشمال . أما أن رعايا فيمالك آخر ملوك التولتيك كان لهم الحق في الاعتراض على الإهانة التي ألحقها بهم زواج ابنة مليكهم من الإله تيزكساتليوكا الذي كان يتنكر في زي شحاذ ، فتلك إشارة عن ردة الفعل الناجمة عن تسللات البرابرة الأولى ، كما أن حضور تيزكساتليوكا في حملة عسكرية إنما يرمز إلى النفوذ المتزايد الذي اكتسبه هؤلاء البرابرة ، بينما ترمز كارثة الخانق إلى فناء التولتيك النهائي .

وهكذا يصبح من المناسب ألا نهمل هذه القصص الأسطورية المتعلقة بالبطل الكبير القادم من مقاطعة بعيدة ليحمل الحضارة ، ذلك لأن الكثير من الأحداث التاريخية يمكن أن يكون مدرجاً في هذه الأساطير . والواقع إن ملحمة كيتزالكواتل توجد في واكساكا ويوكاتان وغواتيمالا وفينزويلا وكولومبيا وبيرو . وحيثما يتوقف هذا النموذج النوعي للقصص الملحمية يبدأ بالتناقض نفوذ المايا ونفوذ البيريين . وفيما وراء هذا

الحمد تنتشر شعوب لم تمسها هاتان الحضارتان الكبيرتان إلا عرضاً وبشكل غير مباشر. وثمة صدى بعيد لهذه الفكرة يرن في أساطير هذه الشعوب حيث تتعلق المسألة بأبطال كبار ثقافيين كانوا مؤسسين لثقافتهم. وهكذا تستطيع الأساطير أن تجهزنا بشواهد تستخدم في تأييد المعطيات الأركيولوجية والإثنوغرافية ونمدنا بمعارف عن حركات ثقافية لا يستطيع الأركيولوجي والإثنوغرافي أن يقول لنا عنها شيئاً لسوء الحظ. ونحن نجد في واكساكاين الزابوتيك والميكستيك - وهم شعبان كانا وسيطين هامين جداً بين ثقافة المايا وثقافة التولتيك -، نجد بطلاً يشبه كيتزالكواتل أعجب الشبه. فقد أتى هو أيضاً من الجنوب الغربي عن طريق البحر وقام مثله بتعليم المبادئ النبيلة، ومثله اضطهد وأبعد، وقد تجذرت تعاليمه والثقافة التي أتى بها بعمق في واكساكا، ويدعي الكاهن - الملك الذي كان يحكم لحظة فتح الأزتك لهذه المنطقة على أنه الحفيد المباشر لسلالة هذا الغريب ذي اللحية الطويلة. وكما كان الأمر مع كيتزالكواتل فإن هذه الأسطورة كان لها بدون شك أساس من حادث تاريخي محدد. فالحضارة الأكثر رقباً وهي حضارة المايا إنما وصلت إلى واكساكا من الجنوب، كما أن عناصر مميزة من ثقافة المايا كانت قد انتشرت هي الأخرى بين شعوب المنطقة وعلى التوازي مع ما حصل في واكساكا.

وإذا تابعنا نحو الجنوب نجد لدى الشيشا وفي يوكاتان أساطير عن فوتان وكوكولكان وزامنا الذين هم أبطال قدموا أيضاً من بلاد بعيدة وحملوا معهم حضارة أعلى. فقوتان يرمز بشكل واضح إلى غزوا المايا لشيابا وتأسيسهم مدينة بالينك، بينما كوكولكان يمثل تقدم حضارة المايا إلى الشمال من شيشين إيتزا.

أما في أمريكا الجنوبية فتوجد حول الأبطال الثقافيين أساطير

مشابهة أيضاً، ففي كولومبيا نجد وجه موشिका الذي ينتسب - كما كان الحال مع كيتزالكواتل ونظيره المكسيكيين - إلى عنصر مميز عن عنصر الشيبشا، وهو الذي أتى إلى هؤلاء بعناصرهم الثقافية، فأدخل فيهم عبادة الشمس وأخضع البلاد إلى ملكين. ولكنه كان له هو الآخر عدو هو امرأته البارعة الجمال، فقد استخدمت كل مفااتها (ولم ينقصها شيء منها) في تدمير كل خير أقامه زوجها، فكان عليه أن يطردها في النهاية فأصبحت قمر السماء. وعندما أتم عمله كان عليه أن يرحل هو الآخر حيث قضى آلاف السنين في واد جميل يعيش متقشفاً بعيداً عما قام به من مآثر.

وأخيراً نصل إلى بير ووالى ديراكوشا. وإليكم هذا النص البيري الذي قدمه لنا المؤرخ جيبزادي ليون عن وصول ديراكوشا: «كانت الأمور إذن على هذه الحال، الشمس تشرق بكل بهائنها من جزيرة تيني كاكّا في بحيرة كالّاو GALLAO الكبيرة ويتمتع بها كل إنسان. وبعد ذلك بقليل، كما يقال، وصل من الجنوب رجل أبيض طويل القامة كان بهيته وهيته يوحى بالطاعة والاحترام. وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة كبيرة كان يستطيع بها أن يبذل السهول إلى جبال والهضاب العالية إلى وديان ويفجّر الماء من الصخور. وما أن أصبحت قدراته معروفة حتى أطلق عليه لقب خالق العالم وأمير كل شيء ووالد الشمس. ويقال أيضاً إنه اجترح كثيراً من المعجزات الأخرى ووهب الحياة إلى الإنسان والحيوان حتى أحس كل الشعب بصنائه ومآثره. وقد أضاف المنود الذين قصّوا علي هذه الحكاية أنهم أخذوها عن أجدادهم الذين أخذوها بدورهم عن أغان قديمة وصلتهم من عصور موهلة في القدم. ويقال إن هذا الرجل ذهب نحو الشمال مجتراحاً معجزات في رواجه خلال الجبال وأنهم لم يعودوا يرونه قط.

وقد علم الناس في كثير من الأماكن كيف ينبغي عليهم أن يعيشوا، وكان يحدثهم في كثير من الحب والبشاشة، ويوصيهم بأن يكونوا صالحين وألا يصنعوا السوء للآخرين وأن يضمروا المحبة والإحسان للجميع، وكانوا يطلقوا عليه عموماً اسم تيسيفير اكوشا، بينما في مقاطعة كالآو كان اسمه تواباكا وفي أماكن أخرى أرناوان ARNAUAN. وقد بنى الناس في كثير من الأماكن معابد وضعوا فيها كتلاً من الحجر على هيئته وقدموا أمامها الأضاحي، ويقال إن الكتل الحجرية الكبيرة في تياهوآناكو ترجع إلى ذلك العصر. وبرغم ما قالوه من تلك الأمور التي ذكرتها عن تيسيفير اكوشا والتي هي أعمال شهيرة لديهم فإنهم لا يعرفون شيئاً آخر عنه ويجهلون ما إذا كان سيعود مرة أخرى إلى بعض أجزاء هذه المملكة.

وهم يروون إصافة إلى ذلك أنهم رأوا بعد عهده بمدة طويلة رجلاً آخر يشبه الأول ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن اسمه. وقد ذكر لهم أجدادهم - وهم يعتبرون ما قالوه لهم مؤكداً - أن هذا الرجل كان يشفي المرضى أنى وجدهم ويعيد للعميان بصرهم عندما يتلفظ ببعض الكلام، وكان محبوباً من الجميع بفضل ما كان يقدم من حسنات، وببما هو يقوم بهذه المعجزات وصل إلى مقاطعة كانا CANAS بالقرب من قرية تسمى كاشا كان النقيب الأسباني بارتولومي تيزازا يمتلك فيها مزرعة فمشى الناس إلى صاحب المعجزات هذا يهدونه بالرجم فأراه عندئذ يركع على ركبتيه ويداه مرفوعتان إلى السماء كما لو أنه يطلب من الإله أن ينقذه مما يهدده من أخطار. ويروي الهنود أن نارا كبيرة ظهرت عند ذلك في السماء وكأنها أحاطت بهم فارتجفوا وتهالكوا من الخوف وسارعوا نحو من أرادوا قتله وهم يلتمسون عفوه بتضرعاتهم العالية لأنهم كانوا يعرفون أن عقاباً سيحل بهم نتيجة للخطيئة التي

أرتكبوها عندما رغبوا برجم هذا الغريب . وعندما أصدر الغريب أمره للنار بأن تنطفىء اختفت النار تماماً وكانوا شهوداً على ما حدث . وتفتت الصخور لدرجة أن الكتل الكبيرة من بينها صارت تُحمل باليد وكأنها من لحاء شجر هش أو من الفلين . وهم يروون بهذه المناسبة أيضاً أن الرجل عندما ترك المكان الذي جرت فيه هذه الأحداث وصل إلى الساحل حيث أمسك بردائه ومضى فوق الأمواج ولم يظهر بعد ذلك قط . وبسبب ذهابه واختفائه أطلقوا عليه ويراكوشا ومعناها «زبد البحر» .

باستثناء ما يتعلق بالحضارات الكبرى من النادر أن نجد في أساطير أمريكا الجنوبية أو الشمالية بطلاً ثقافياً نصف بشري يقوم بدور المسافرين في الوقت نفسه . فنحن لا نجده إلا مرة واحدة هي المنطقة الوحيدة التي يمكن أن نجده فيها وهي منطقة الميسيسيبي الأدنى . فمن بين كل أساطير الهجرة لا يوجد ما هو أكثر إثارة للاهتمام من تلك التي يرويها المؤرخ الفرنسي دي براتز بعد أن سمعها من حارس المعبد . وعلى الرغم من أنها مزيج من الوهم والحقيقة فلإنها تشير إلى حوادث تاريخية تم الاحتفاظ منها بذكرى غامضة يمكن تصنيفها في المستوى نفسه للأساطير التي رأيناها سابقاً والتي ستكلم عنها فيما سيأتي من حديث :

قبل أن نأتي إلى هذه الأرض كنا نقيم هناك في بلد جميل أرضه صالحة على الدوام . هناك بقي شموستا (أي أمراؤنا) لأن سكان البلاد القدماء لم يكونوا يستطيعون أن يتغلبوا علينا برغم ما لديهم من محاربين . فكانوا يصلون حتى الجبال ويخضعون أبناء جنسنا الذين يسكنون في قرى السهل ، ولكن محاربينا كانوا يردونهم عند مداخل الجبال ولا يسمحون لهم باختراقها أبداً .

وكانت أمتنا تنتشر على طول الماء الكبير (البحر) الذي يصب
 فيه هذا النهر الكبير (الميسيبي)، فأرسل بعض شمسنا (أمرائنا) أناسا
 يصعدون مع النهر للبحث عن مكان يستطيعون فيه الاحتباء من
 سكان البلاد القدماء لأنهم بعد أن بقوا مدة طويلة أصدقاء لهم، انقلبوا
 خبثاء وكثرت أعدادهم حتى لم يعد بإمكاننا أن ندافع عن أنفسنا
 تجاههم. فمن كان من أمتنا في السهل لم يكن يرضى لنفسه الخضوع،
 ومن كانوا قد انسحبوا إلى الجبل بقوا تحت طاعة الشمس الكبير
 (الملك). وكان سكان البلاد القدماء يريدون كذلك أن يجبروا أولئك
 الذين أحضروهم من أمتنا أن ينضموا إليهم في محاربتنا، ولكنهم كانوا
 يفضلون الموت على أن يقاتلوا أخوانهم وبخاصة الشمس (الأمراء).
 أما الذين صعدوا على طول النهر الكبير من جهة الغرب فإنهم
 ما أن رأوا هذه الأرض التي نسكنها اليوم حتى اجتازوا النهر على طوف
 صنعوه من القصب الجفاف فوجدوا البلد كما كانوا يتمنون صالحا لأن
 ينجسوا فيه من السكان القدماء ويسهل الدفاع عنه فيما لو حاولوا أبدا أن
 يهاجموهم فيه. وعند عودتهم قدموا تقريرهم للشمس الكبير وبقيّة
 الشمس الذين كانوا يحكمون على القرى.
 عند ذلك قام الشمس الكبير فأخطر على الفور كل سكان
 السهل وكل الذين كانوا لا يزالون يدفعون عن أنفسهم هجمات
 السكان القدماء وأمرهم بالذهاب إلى هذه الأرض الجديدة وأن يقيموا
 فيها معبدا وأن يحملوا معهم النار الخالدة وأن يحافظوا عليها هناك.
 فقدم عدد كبير مع نسائهم وأولادهم، أما الشيوخ والشمس أقرباء
 الشمس الكبير فقد بقوا مع أولئك الذين كانوا يحرسون الشمس الكبير
 كما يحرسون الجبال. وقد بقوا هنالك مدة طويلة مثل أولئك الذين كانوا
 يقيمون على شاطئ الماء الكبير.

وهكذا استقر هنا قسم كبير من أمتنا وعاشوا مدة طويلة في سلام
ورخاء خلال العديد من الأجيال . أما الذين بقوا مع الشمس وبالقرب
منه فإنهم لم يستعجلوا الانضمام إلينا ، ذلك لأن سكان البلاد القدماء لم
يكونوا يقصرون كراحتهم على أمتنا وإنما كانوا أيضاً يكرهون بعضهم
بعضاً ، وإليك ما تفصده الروايات القديمة عما جرى .

لقد كان سكان البلاد القدماء أخوة كلهم ، أي أنهم كانوا
ينتمون إلى البلد نفسه . ولكن كل قرية كبيرة كان يتبعها قرى أخرى
أصغر منها ويحكمها زعيم يسودها . وكان كل زعيم يحكم على أولئك
الذين قادهم وأتى بهم إلى هذه الأرض . وكانت الأمور تجري على ما
يرام بين هؤلاء الزعماء ولا يشعر أحد بضعف غيره على الآخر حتى قام
أحدهم بمحاول السيطرة عليهم ويجعلهم له عبيداً وتابعين . وهكذا لم يعد
سكان البلاد القدماء على وفاق بينهم حتى أن الأمور وصلت بهم إلى
الحرب . وقد انضم بعضهم إلى أولئك الذين بقوا هناك من أمتنا
وتعاون الطرفان على الصمود في وجه الخصوم .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي أبقى شموستنا في هذا
البلد . فقد كانوا يحسون بالآلم لترك هذه الأرض الطيبة ، كما أن
مساعدهم كانت ضرورية لأخواننا الآخرين الذين استقروا هناك كما
فعلنا نحن في أرضنا ولأولئك الذين كانوا يسكنون على طول شاطئ
الماء الكبير من جهة الشرق . وكان هؤلاء متشرين انتشاراً واسعاً حتى
أنهم ذهبوا بعيداً جداً عن الشمس ، وكان من بينهم كثيرون لا يسمع
الشمس الكبير شيئاً من أخبارهم إلا كل خمس أو ست سنوات ، وكان
بينهم أيضاً من هم بعيدون جداً عنا سواء على طول الشاطئ أو في
الجزر حتى أننا لم نسمع عن أخبارهم منذ العديد من السنين .

ولم ينضم إلينا هؤلاء الشموست إلا بعد أجيال كثيرة قدموا بعدها

إلى هذا البلد الذي يتمتع بالسلام والهواء العدي ، وتمتعا بكل ذلك حتى نكسثرنا وزادت أعدادنا كثيراً حتى أصبحنا كأوراق الشجر . وقد أتى هؤلاء الشمس وحدهم مع عبيدهم ، أما بقية أخوتنا فلم يشاؤوا أن يتبعوهم وبقوا هناك . . .

على أنه باستثناء هذه القبائل فإن كل الشعوب التي تعيش إلى الشمال من ريوغراندا قد نسيت تماماً أن ثقافتها إنما أتتها من الجنوب . وهذا النسيان طبيعي تماماً لأن هذه الثقافة إنما وصلت إليهم عن أحفاد أولئك الذين حملوها ، وقد تلقوها في معظم الحالات لا عن طريق العنف الذي ترسخ ذكره بالذهن وإنما نفذت إليهم شيئاً فشيئاً وببطء شديد . ومع ذلك بقيت ذكريات غامضة في المناطق التي كان بقاؤها فيها من الأمور الطبيعية في الجنوب الغربي وفي الشمال الشرقي من البلاد . فهنا نجد في الواقع حكايات طويلة عن هجرات موضوعها بيوت هجرت وجنة رائعة عرف فيها الجميع السعادة فيما مضى ولكنها لا تشير أبداً إلى غريب قدم ليعلّمهم قواعد جديدة ويحمل إليهم حضارة جديدة . أما الباقي فقد ضاع في ظلام ميثولوجي غير قابل للاختراق . وقد انطفأت الأصدا الضعيفة تماماً . أما البرابرة وأنصاف البرابرة الذين يعيشون في الشمال فإنهم لا يقتصرون على الشعور بأنهم ما من شيء يربطهم بقية الإنسانية ولكنهم مشبعون أيضاً بتعصب متعجرف ناجم عن قناعتهم بأن الآلهة أنفسهم هم الذين اصطفوهم هم وثقافتهم من العدم .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن هذا الأثر عفى تماماً فإن بإمكاننا أن نكشف عن آثار أخرى لا نكاد نتوصل إليها إلا بكل صعوبة . ففي كل أمريكا الشمالية والجنوبية نجد أسطورة تتعلق بموضوعها بأخوين هما ابنان للشمس يملؤون العالم بهاتهما . فإذا تتبعناهما من قبيلة لأخرى رأينا تغيراً في هويتهما ودلالاتهما . ونحن نميل في الوهلة الأولى لآل نولي

اهتماماً لهذه التعديلات ولكننا إذا درسناها عن كثب نقفز أمامنا ملاحظة
مثيرة للفضول هي أن كل هذه التعديلات ما تلبث أن تتوضح دلالاتها
أمام أعيننا كلها أمعنا في دراستها .

فكلما تقدمنا الى الشمال ماضين من يوكاتان نرى الأخوين
الإلهيين يفقدان صفاتها ووظائفها واحدة بعد أخرى حتى إذا ما وصلنا
إلى الأوجيسوا في كندا مسخت قصتها حتى أصبحت مجرد حكاية
لتسليّة الصغار والكبار . ونجد هذا المصير نفسه يهيب هذين البطلين
إذا ما تركنا مضاب بير والعليا وكولومبيا لنمضي إلى الشرق من جبال
الأنديز . فالانحطاط المتبادي للبطل وأسطورته يبدو أنه يتناسب مع آثار
الطريق التي رسمها انتشار حضارة المايا والحضارة البيرّة كلّاً في السبل
التي سارت عليها .

ولنبداً بالمايا . فالأخوان إلهان أنجبهما أبوان أصبحا فيما بعد
الشمس والقمر . وقد هُزم الأب أمام سكان كسيالها التي هي جهنم
المايا وقُطع رأسه بعد ذلك . وقد تم الحمل بالطفلين بصورة عجائية .
فلما اكتشفا شخصية أبيهما ذهبا الى كسيالها للانتقام له ، فلما عادت
اليه الحياة أصبح شمساً وأصبحت امرأته قمرأً وأصبح ولداه نجمين في
السماء . وثمة تفصيل هام آخر يتعلق بالكسراهية بين الأبطال وبين
أخوتهم غير الأشقاء . وعلى الرغم من أن هؤلاء الأخوة لم يرد ذكرهم
في هذه الأسطورة إلا أنهم لعبوا في غيرها دوراً له دلالة .

أمّا لدى الأزتك فالوضع غامض بعض الشيء إما بسبب
النصوص المتبورة التي وصلتنا وإما بسبب رواية أساطير الأزتك المتعلقة
بالكون بشكل شديد التعقيد . فأوصاف الأخوين ومغامراتها هنا
يشترك بها عدد آخر من الأخوة كلهم من كبار الآلهة من أمثال

تيزكاتليبوكا وكيترزالكواتل . وهو يتزبلوبوشتلي ، وهم يرتبطون كلهم بالشمس بطريقة ما ويتقاتلون بعضهم مع بعض .

وفي الجنوب الغربي من الولايات المتحدة عند الهوبي سنجد الأخوين أيضاً ، ولكنها هنا ذواقمة صغيرة ولدا من الشمس ومن زبد البحر الذي يعلورؤ وس الأمواج وأحدهما يكبر الثاني بقليل بينما الثاني نشيط وصاحب عزم وتصميم .

وعلى الرغم من أن هذه الوجوه تناولها الكثير من التغيير فإنه يبدو من المؤكد أن الأمر هنا يتعلق بالأخوين اللذين ورد ذكرهما في أسطورة المايا وبالثاني كيتزالكواتل - تيزكاتليبوكا اللذين ورد ذكرهما في أسطورة الأزتك . وكما هو الحال في عناصر أخرى من عناصر ثقافة الولايات المتحدة فإن نص الهوبي HOPI هو أقرب إلى نص المايا من إلى نص الأزتك . ولكن مغامرات الأخوين «ابني الشمس» - كما ورد عند المايا - تدور في كهوف العالم المظلمة ، بينما لم يتزل بطلا الهوبي إلى هذه الكهوف طواعية للبحث عن المغامرات وإنما كانوا يقيمون فيها منذ البدء ، ولم تكن مهمتهما الانتقام لمقتل أبيهما وإنما هي تخليص الإنسانية من الظلمات التي كانت غارقة فيها ، وأخيراً وبكل ببطء وبعد الكثير من المحن نجحوا في قيادة بني الإنسان من عالم إلى عالم آخر يغمره نور الشمس . وعندما بلغا وجه الأرض كانوا مضطرين لقتال الشعوب التي وصلت قبلهم ، وعن أسطورة الهوبي هذه يقدم لنا عالم الأجناس الأمريكي كوشينغ CUSHING - وهو عالم موهوب - هذا النص الرومانسي الجميل :

«عندما كان العالم لا يزال جديداً لم يكن بنو الإنسان والحيوان وكل الأشياء على سطح الأرض ولكن في باطنها . وكان الظلام يعم كل شيء في الأعلى والأسفل على السواء . وكان يوجد أربعة عوالم : عالمنا

الذي يقع فوق سطح الأرض ، وثلاثة كهوف مطبقة بعضها فوق بعض . ولم يكن واحد من هذه الكهوف من السعة بحيث يضم كل الحيوانات والناس الذين تكاثروا في الكهف الأسفل حتى بلغوا منه الخوف ، وكانوا مساكين لا يعرفون إلى أين يتوجهون في حالك الظلام ويصطدم بعضهم ببعض عندما كانوا يتنقلون . وقد غطيت الأرض بجيف الذين كانوا يسكنونها ولا يستطيع أحد أن يصدق دون أن يؤدي من هو قريب منه . وكان كل شخص يملأ المكان بشكواه وتقززه وتسؤلاته عن النتيجة والمآل .

وكان الرؤساء يقولون : « لا يمكن لهذا أن يدوم » أو « ما العمل لتحسين هذا الحال » أو « فلنحاول أن نفعل أي شيء » . وقال أخوان ، بكر وصغير : « فلنحاول وسيكون كل شيء على مايرام . وإذا أردنا تحسن كل شيء » . هكذا تحدث « الاثنان » إلى رؤساء وكهان أولئك الذين كانوا يسكنون في الكهف . ثم قام « الاثنان » بثقب سقف الكهوف ونزلا إلى الظلام حيث يسكن بنو الانسان والكائنات وهناك قاما بزراعة مختلف أنواع النباتات التي ترتفع في نموها عالياً على أمل أن يبلغ بعضها الفتحة التي نزلا منها وتكون من القوة بحيث تتحمل ثقل بني الإنسان والكائنات الذين سيتسلقونها عندما يتم ذلك فيصلوا عن طريقها إلى الكهف الثاني . وأخيراً ، وبعد العديد من المحاولات ، ارتفع أحد الجذوع حتى بلغ رأسه الفتحة وكان من القوة بحيث استطاع أن يتحمل ثقل من تسلقه إلى الأعلى . وكان مؤلفاً من قطع متسائكة تسفح بتسلقه بكل سهولة وكأنه سلم وبقي على هذه الحال منذ ذلك الوقت وما زلنا نراه حتى اليوم على طول كولورادو .

وقد تسلق هذا الجزء كثير من الناس والحيوانات إلى الكهف الثاني . ولما أصبح بعضهم في الأعلى وجدوا الكهف الثاني مظلماً بحيث

لم يستطيعوا أن يقيسوا مساحته فخافوا من أن يكون صغيراً فلا يتسع للجميع فهزوا سلم الجذع الذي كان يتسلقه العديد من الكائنات فسقطوا كلهم على أرض المغارة التي كانوا فيها . ثم بعد ذلك سحبوا السلم كله كي لا يستطيع أي كائن بعد ذلك أن يتسلقه أبداً . ويقال إن أولئك الذين بقوا في الأسفل تمكنوا هم أيضاً من الخروج وهم أخواننا الذين يعيشون في جهة الغرب .

وبعد حقبة طويلة من الزمان اكتظ الكهف الثاني أيضاً بساكنيه من بني الإنسان والحيوان كما كان الحال مع الكهف الأول . وبدأت الخلافات كما بدأت الشكاوى والتذمر . ومن جديد وضعوا الجذع تحت السقف وتخلصوا مرة أخرى . أما أولئك الذين لم يسارعوا إلى التسلق فقد هُزّبهم الجذع وتركوا في مكانهم كما حدث في المرة الأولى . وعلى الرغم من أن هذا الكهف الثالث كان أكثر اتساعاً فإنه كان مظلماً كسابقيه . عند ذلك استدعى «الاثنان» النار وأوقدوا المشاعل حيث بنى الناس على ضوءها أكواخاً وصاروا ينتقلون من مكان إلى آخر .

وبينما كان الناس والحيوانات يعيشون في هذا الكهف الثالث حدثت أمور مزعجة ، فقد غدت النساء مجنونات يهملن كل شيء في سبيل أن يرقصن وينسين حتى أولادهن ، وكن يختلطن ببعضهن بعضاً حتى أن الرجال لم يعودوا يعرفون زوجاتهم ، ولم يكن ثمة نهار بل ليل دائم كانت النساء يرقصن فيه ولا يتوقفن إلا من أجل الذهاب إلى النوم . وعندما كان الأولاد يكون بسبب الجوع كان الآباء يأتون بهم إلى حيث ترقص النساء فتسمع الأمهات صراخهم فيقمن بإرضاعهم ثم لا يلبثن أن يعدن إلى الرقص وينسينهم تحت رعاية الآباء .

وبسبب هذه الفوضى والمضايقات رغب الرجال بأن يتحرروا وأن يمتعوا أنظارهم برؤية النور فصعدوا إلى العالم الرابع الذي هو عالمنا

ولكنهم وجدوه مظلماً كما هو حال العوالم السفلى لأن الأرض كانت مغطاة بالسماء كما كانت المغاور مغطاة بالسقوف. ولم يكن الرجال قادرين على التفرغ لأعمالهم إلا على ضوء المشاعل، وقد وجدوا آثار كائن واحد هو سيد هذا العالم غير المسكون، آثار (الشیطان - الجنة، أو آثار الموت. وكانت هذه الآثار تتجه نحو الشرق فتبعها الرجال ولكن العالم كان رطباً ولم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون في هذه الظلمات لأن المياه كانت على ما يبدو تحيط بهم من كل الجهات وكانت الآثار كلها تقود إلى تلك المياه.

وكان بين هؤلاء الناس الذين خرجوا من الكهوف خمسة من الحيوانات هم العنكبوت والصقور والقبرة والقيوط^(*) COYOTE والجرادة. فتكاتفوا مع الرجال لايجاد الوسيلة التي يحصلون بها على الضياء. وتم القرار على أن تكون العنكبوت هي البادئة، فنسجت رداء من القطن الأبيض نشر بعض الضياء الضئيل فاعتبرت العنكبوت أمنا منذ ذلك الوقت. عند ذلك تزود الرجال بجلد أيل كامل البياض فجهزوه وصنعوا منه ترساً صبغوه بلون الفير وزفوا أن انتهى حتى أخذ يلمع حتى أضاء العالم كله وشحب الى جانبه لون الرداء الأبيض الذي كانت قد صنعتها العنكبوت. عند ذلك أرسل الرجال الترس الى الشرق ليصبح الشمس والرداء الى الغرب ليصبح القمر. وكان القيوط قد سرق من الكهف الأسفل جرة ثقيلة ثقيلة جداً حتى أنه لم يكن يستطيع حملها فقرر أن يرميها لولا أنه كان فضولياً فأراد أن يعرف ما بداخلها طالما أن النور أصبح مؤمناً للجميع. وهكذا فتحها فانبعث

* - القيوط COYOTE ذئب أمريكي صغير.

منها كثير من الشرر والقطع الصغيرة اللامعة التي أحرقت وجهه وهي تمر بقربه قبل أن تنطلق إلى السماء لتصبح نجومها ، ومنذ ذلك الوقت أصبح القيوط أسود الوجه .

وعلى أثر هذا الضوء الجديد اكتشف الناس أن العالم صغير جداً وعماط من جميع جوانبه بالماء الذي يجعله رطباً ، فتوجهوا إلى الصقر الذي صفق بجناحيه فأبعد الماء نحو الشرق ونحو الغرب حتى ظهرت الجبال . وعبر هذه الجبال حفرة الاثنان قنات جرى فيها الماء وازداد عمقه شيئاً فشيئاً حتى تولدت منه الخنادق الضيقة والوديان . وقد جرت هذه المياه أحقاباً طويلة من الزمن حتى جف العالم شيئاً فشيئاً مع الوقت . ولما صار العالم منيراً وأصبحت الأرض مرئية تمكن الرجال من أن يتبعوا بسهولة آثار الموت التي قادتهم إلى البحر . وكان هذا الموت الأب الأول لنا وصاحب الأمر والنهي فينا لأننا سرنا على آثاره منذ أن خرجنا من مخبئنا في الكهوف . وبالرغم من أن المياه أزيحت فإن الأرض بقيت طرية ورطبة ، ومن أجل ذلك مازلنا نرى حتى الآن بين الغرب والمكان الذي خرجنا منه آثاراً غريبة وكثيرة للإنسان والحيوان ، ومنذ أن تحولت الأرض إلى منحدر بقيت هذه الآثار محتفظة بشكلها الأول واستمرت على ذلك حتى اليوم .

على هذه الصورة تبدلت آلهة المايا تبديلاً يتسق مع ذكرى حضارتهم التي كانت تنطفئ شيئاً فشيئاً في أذهان الناس . وقد انتقلت الأسطورة من قبيلة إلى قبيلة أخرى بعد أن كان ينالها التعديل بحسب الأماكن التي كانت تنتقل إليها . وقبل اختفائها النهائي وجدنا منها نصاً مشيراً للفضول في منطقة ضيقة معزولة في وسكونسن الشمالية ، وهي منطقة لا تزال تسمع فيها أصداء ضعيفة من هذا البهاء العظيم القديم لدى الويتياغوفي غرين باي .

وكما أن هؤلاء الوينيياغو قد تم امتصاصهم نهائياً أو كاد على يد
البرابرة، كذلك انتهى هذا الانعكاس الأخير للإرث الثقافي القادم من
المايا على بناء التلال الصناعية MOUNDS وأحفادهم من خلائط الناس
لأن يصبح بعيد الشبه جداً عن أصله ونموذجه القديم بمقدار ما كان
ينتشر بين غابات كندا وبحيراتهما.

الفهرس

٥	توطئة
٧	مقدمة
١١	نظرة أولية على العالم الجديد
٣٧	المايا منبع الضياء
٦٥	المكسيكيون القدماء
١٠٣	سكان بيرو القدماء
١٣٥	المكسيكيون يفتحون أمريكا الشمالية
١٤٧	فتوحات الآلهة الشمس
١٥٩	ملحمة الهجرة

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب حضارة الهنود في أمريكا الوسطى والجنوبية والمكسيك مما عرف في أذهان الناس بحضارات المايا والأزتك والإنكا مع كل ما مثلته هذه الحضارات من عظمة وتوهج في فنون البناء والنحت والنقش والصياغة والخزف والأدب والكتابة الهيرغليفية والحساب والفلك والأساطير. ثم ينتقل في القسم الثاني إلى حديث طويل عن تأثير هذه الثقافات بهنود أمريكا الشمالية الذين وجدهم الأوروبيون عند وصولهم في حالة من الصيد والالتقاط وبعض الزراعة ووجدوا في بعض مناطقهم وبخاصة على طرفي وادي الميسيسيبي الأدنى تلالاً صناعية MOUNDS تخفي تحتها آثار حضارة حاول المؤلف أن يردّها إلى مؤثرات قدمت إلى هذه المناطق من ثقافة المايا والأزتك كما حاول أن يرد كثيراً من العبادات والمقدسات والأفكار والعبادات والأساطير إلى تلك الحضارة لأنها تدل على ذكرى بعيدة ما زالت تسمع أصدائها في عقول هؤلاء الهنود الحمر وتصرفاتهم.

من مقدمة الكتاب

